ملف 1
ذاكرة الدم

الطنطورة:
تحقيق حول ﴿مذبحة منسيّة﴾

ثيودور كاتس

١) البحر كان شاهداً على الجريمة...

(... وكنت اذهب إلى شاطىء الطنطورة، وقد اصبح عامراً بالمستحمين، فأقعدُ قعدةً ولاء على صخرته في لسان البحر، وأرسل خيطي، وأناديه في قلبي أن يرد عليّ.

فإذا بطفل يهودي وقد قعد إلى جانبي دون أن ألحظه يفاجئني بالسؤال: بأية لغة تتكلم يا عماه؟

– بالعربية.

– مع من؟

– مع السمك.

– والسمك، هل يفهم اللغة العربية فقط؟

– السمك الكبير، العجوز، الذي كان هنا حين كان العرب.

– والسمك الصغير، هل يفهم العبرية؟

– يفهم العبرية والعربية وكل اللغات. إن البحار واسعة ومتصلة، ليس عليها حدود وتتسع لكل السمك.

– أوي قأقوي «يا إلهي»)...

(اميل حبيبي، «المتشائل»، الاعمال الكاملة، الناصرة ١٩٩٧، ص ٣١١)

أ) .. مرة أخرى، وبلا مقدمات، تأتينا «شهادة – أخرى – من أهله» عن مذبحة أخرى ظلت رهينة النسيان، ودفينة عشرات السنين في خبايا الذاكرة الفلسطينية الباقية، حملها أشخاص باتوا الآن في خريف أعمارهم، ومع ذلك فهم يتذكرونها بأدق التفاصيل، كأنما وقعت بالأمس القريب فقط.

مرة أخرى يفجؤنا «إسرائيلي طيب» آخر،، دونما حاجة لأن يكون «مؤرخاً جديداً»، ويدهمنا على حين غرة، بمادة بحث جامعي غنية عن مجزرة ظلت تفاصيلها مجهولة إلى يومنا هذا، مع أنها عاشت وتنقلت ومضت من بيننا مع من مضى من آخر الشهود على تلك المذبحة البشعة والمدبرة، التي نفذتها همجية تزعم حتى اليوم أنها كانت تبني وطنا لها، في قرية صيادين جميلة على الساحل الفلسطيني الاوسط، كان اسمها الطنطورة.

لولا أن الطنطورة صارت، بعد اثنين وخمسين عاما، «صرعة صحفية» في مجتمع يحتكم إلى «قوانين السوق»، ولولا ذلك اليهودي الطيب الذي قرر «عبور الحدود»، مكرساً سنوات من عمره للتحقيق في تفاصيل المذبحة المنسية، دون أن تثنيه عن ذلك حقيقة أنه يعيش في «كيبوتس»، وأنه عضو في حركة يسارية صهيونية معروفة هي «ميرتس»، لبقيت هذه الواقعة البشعة دفينة الماضي، رغم ما ورد من ذكر غير موثّق لها في بعض المصادر العربية. وفقط بعد أن نشرت «معريف» بالذات في مطلع الألفين ملخص البحث الذي قام به ثيودور كاتس ابن «كيبوتس مچال»، وما تلاه من ضجة صدرت عن بعض أفراد «لواء الكسندروني» الذي أشرف على تنفيذ المذبحة، أُفرد لها مكان في أرشيف الذاكرة الجماعية المرة، ليس من دون بعض الأسى والحسرة على ما يعترينا من قصور في تتبع وتدوين واستقصاء حقائق ضائعة في تاريخنا الفلسطيني، ليس قبل فوات الأوان!

ب) يحمل التحقيق الذي قدّمه صاحبه ثيودور كاتس إلى جامعة حيفا لنيل درجة الماجستير العنوان «خروج العرب من قرى سفح الكرمل الجنوبي» في عام ١٩٤٨ (أشرف على مناقشته وإجازته الدكتور قيس فرّو من قسم تاريخ الشرق الأوسط في الجامعة) وهو تحقيق شامل اعتمد على وثائق عبرية تنشر لأول مرة، وشهادات شفهية من لاجئي الطنطورة الباقين في عدد من قرى الداخل، ممن التقاهم المؤلف في نطاق بحثه الميداني، تكشف لأول مرة حجم الكارثة التي لحقت بهذه القرية الفلسطينية الساحلية في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ / ٥ / ١٩٤٨، وفي صبيحة اليوم التالي، عندما نفذ مسلحون من «لواء الكسندروني» مذبحة جماعية فيها، راح ضحيتها أكثر من مائتين وخمسين إنساناً كانوا مجردين من السلاح أو أية وسائل أخرى للدفاع عن النفس.

يناقش البحث بتوسع بعض جوانب اللجوء الفلسطيني من منطقة الكرمل والسهل الساحلي في حرب ٤٨، ويتوصل أحيانا إلى استخلاص النتائج الحقيقية لما حدث، كاشفاً حجم المؤامرة التي أعدت قبل اندلاع الحرب بشهور، وكانت تقضي بتشريد سكان جميع قرى الساحل الفلسطيني، من رأس الناقورة شمالاً حتى ساحل غزة في الجنوب، وإقامة الدولة اليهودية فوق أنقاضهم. ويتطرق البحث إلى احتلال قرية أُم الزينات الساحلية، الواقعة شمالي الطنطورة، وتشريد سكانها، مقدماً شهادات من بقي من أهلها حياً لدى إجراء التحقيق قبل سنوات. (علمنا من الكاتب أنه يعكف على كتابة اطروحة دكتوراة لنفس الجامعة حول احتلال وتشريد أُم الزينات).

في الصفحات التالية نقدم ترجمة للفصل الرابع من البحث، المتركز على احتلال الطنطورة والشهادات حول المذبحة، وملاحظات المؤلف عليها.

(المترجم)

٢) الطنطورة: كل الحكاية

«ما تعلمته هنا أن الجماعة يجيدون مهنة القتل. أولئك كانوا في الأساس شباناً قتل العرب أو ذبحوا أو ارتكبوا أعمالاً (...) أخرى بحق أفراد من عائلاتهم، أو انهم كانوا من بين مصابي هتلر (فتلك نفس الفاشية). لقد نفذوا في القناصة انتقامهم الشخصي، وانتقموا لرفاقنا الذين سقطوا بأيديهم النجسة. أحسست أنهم ينفسون بذلك عن كامل الغضب والمرارة المتراكمة في قلوبهم. أحسست أنه رُوّح عنهم بواسطة ذلك»[١].

هكذا يكتب توليك (نفتالي) ماكوڤسكي، الجندي في كتيبة ٣٣ التابعة للواء «الكسندروني» (في الفرقة ب على ما يبدو) ومن مشاركي معركة الطنطورة، أياماً معدودة بعد المعركة.

في ختام المقطع يكتب توليك، الذي سقط بنفسه في معركة في «كفار مونش» في أواخر ذلك الأسبوع، في يوم ١/٦/١٩٤٨: «بعد يوم طويل وصعب وممل، حل المساء وجاءوا لاستبدالنا. في طريق العودة كنا أقل بكثير. قُتل اثنان، ومكث كثيرون في المستشفى. كان الجميع متعبين حتى الموت فقطعوا الطريق كلها في نوم هو ليس بالنوم في السيارة. لم أتمكن من النوم، ولم أرغب فيه أيضاً، على رغم تعبي الشديد. نقلت أنظاري من واحد لآخر واستغرقت في التفكير»[٢].

هذه الشهادة، التي تنطق عن نفسها، وشهادات أخرى كثيرة شفهية من يهود وعرب، تحكي قصة المعركة على الطنطورة، علاوة على كل ما هو موجود في الوثائق المختلفة وفي الأدبيات الثانوية، وأبعد منه احياناً.

ثمة صورة عامة تصعد من بين أكثر من عشرين شهادة مختلفة من لاجئي الطنطورة، المتواجدين اليوم في مختلف الأماكن، وكذلك من بين عدد من الشهادات الصادرة عن يهود شاركوا في المعركة، وهي أنه في الليلة الكائنة بين ٢٢ و ٢٣/٥/١٩٤٨، وفي صبيحة اليوم التالي، هاجمت كتيبة ٣٣ من لواء «الكسندروني»، تساعدها شعبة من «الكتيبة المتنقلة» في لواء «كرميلي»، قرية الطنطورة وقامت بسد مدخلها الشمالي. احتلت القرية بعد ساعات من تبادل نيران كانت شديدة في بعض قطاعات القتال، لكن القرية في ساعات الصباح المبكرة كانت قد سقطت بأيدي القوات الاسرائيلية، التي تقول شهادات أكثر من عشرين لاجئاً من لاجئي الطنطورة ممن قابلتهم لاحقاً وكذلك بعض جنود لواء «الكسندروني» انها – اي: القوات – عملت أيضاً ولعدة ساعات على تنفيذ مطاردات قاتلة وراء الرجال الكبار السن، لقتلهم، أولاً في كل مكان يتم العثور عليهم فيه – في البيوت، والساحات وحتى في الشوارع، في ما بعد بصورة مركزة في مقبرة القرية.

سقط في المعركة ١٤ يهوديا، بينهم أحد أفراد الكتيبة البحرية، وهي ذراع «البلماح» البحرية، أصيب برصاص قواتنا. ولم يسقط من بين رجال الطنطورة في المعركة ذاتها أكثر من ١٠ – ٢٠ شخصاً، لكن عدد الرجال المقتولين الذين تم تجميعهم في القرية في نهاية ذلك اليوم بلغ ٢٠٠ – ٢٥٠ رجلاً، قتلوا في ظروف كان فيها سكان القرية مجردين من السلاح وغير محميين بالمرة.

هذه هي الحقائق الجافة المتصاعدة من الشهادات، التي سنثبت بعضها في سياق المادة. غداة احتلال الطنطورة نشرت الصحف العبرية من تلك الأيام نبأ يكاد يكون متشابها في «داڤار»،

لسان حال «الهستدروت العامة للعمال في اسرائيل»، و «صوت الشعب»، لسان حال الحزب الشيوعي، و «هتسوفيه»، صحيفة المعسكر الديني – القومي، و «همشكيف»، صحيفة الإصلاحيين و «عل همشمار»، صحيفة حزب العمال الموحد. ظهر النبأ بتاريخ ٢٤/٥/١٩٤٨ تحت عنوان «أسر المئات من افراد العصابات مع احتلال الطنطورة»، جاء فيه: «في الآونة الأخيرة تحولت قرية الطنطورة في محيط زخرون يعقوب إلى قاعدة بحرية للعدو، الذي كان يهرّب عبرها السلاح والرجال إلى أرض اسرائيل، هكذا أفادت إذاعة «صوت الهجناه» . هذه الليلة هاجمت قواتنا القرية وبعد معركة مريرة احتلتها. وقع المئات من أفراد العصابات في الأسر وغنمت قواتنا اسلحة كثيرة. تقع قرية الطنطورة على بعد سبعة كيلومترات من عتليت» [٣].

تدل المقابلات التي أجراها الكاتب مع لاجئي ١٩٤٨، سواء كانوا من أبناء الطنطورة أو إجزمْ، على أن معظم التعزيزات والمساعدات والذخيرة التي وصلتها، تلقتها قرى «المثلث الصغير» عبر وادي عاره بالذات، من تجمعات الجيش العراقي، أما هذا الزعم بشأن نشاط عسكري لميناء الطنطورة فما زال بحاجة إلى إثبات قوي للغاية.

وهناك مسألة أخرى بحاجة للفحص، وردت في عنوان الخبر – «المئات من أفراد العصابات» الذين وقعوا في الأسر. هذه مسألة صعبة وإشكالية: من جهة، لدينا شهادة أهرون بونشطاين، بأنه في يوم احتلال الطنطورة أشار بنفسه إلى افراد العصابات الذين قتلوا في أماكنهم. ومن جهة أخرى، شهد الكثير ممن قابلتهم من اليهود والعرب على أنه لم يكن هناك غرباء في الطنطورة في يوم الاحتلال.

في نفس اليوم ظهر خبر إضافي في «داڤار» حول احتلال الطنطورة، كان أكثر تفصيلاً. وهذا ما جاء في نبأ يحمل العنوان «كيف احتلت قرية الطنطورة»:

«يفيد مراسلنا في الخضيرة، أنه بعد عملية قتالية ناجحة لجنودنا استسلمت – بعد عدة ساعات، من الفجر حتى الظهر – قرية الصيادين الجميلة الطنطورة، ذات الألفي نسمة، التي تقع فوق منطقة دور العتيقة. كانت هذه القرية الجزيرة الوحيدة لمقاومة عربية في منطقة الساحل، وقد استخدمت أيضاً مكاناً للتعزيزات عبر البحر من البلدان المجاورة. لقي جنودنا الذين اقتربوا من القرية عند منتصف الليل مقاومة شديدة. كانت مواقع العرب محصنة. بعضها أحيط بالصخور. وكان هناك اتصال تلفوني بين المواقع. كان بادياً أن خطة التحصينات وضعت بأيدي خبراء أوروبيين. تغلب رجالنا على المقاومة ودخلوا القرية ملحقين بالعدو خسائر جسيمة. في ساعات الظهر استسلمت القرية أمام مقاتلينا. أُخذت غنائم كثيرة من الذخيرة وأسر حوالي مائتي رجل. أما النساء والأطفال فنقلوا إلى قرية الفريديس. يذكر أن م. ديزنغوف أقام في حينه مصنعاً للزجاج، يقع في مبنى ذي طابقين ويبدو من بعيد من شارع زخرون يعقوب – حيفا»[٤].

ثمة عدد من النقاط الجديرة بأن تفحص بحذر في هذا الخبر: أولاً، يشير الخبر إلى أن عدد سكان الطنطورة ألفا نسمة، وهو المصدر الوحيد الذي يشير إلى عدد كبير كهذا لسكانها. فجميع المصادر المكتوبة والشفهية تتحدث عن ١٧٠٠ نسمة فقط. مقابل ذلك فإن الرقم الثاني الذي يشير إليه الخبر المذكور – مئتا رجل من الطنطورة وقعوا في الأسر – لا يلائم «المئات من أفراد

العصابات»، إذ لو كان الرقم صحيحاً، فهو يخص رجال الطنطورة لا الغرباء. لماذا؟ يمكن شرح ذلك بالحساب التالي: حتى لو افترضنا أن عدد سكان الطنطورة كان ألفين لا ألفاً وسبعمائة، فإن عدد الرجال البالغين بينهم لن يتجاوز الأربعمائة وربما الأربعمائة والخمسين في أقصى حد. في المعركة على احتلال القرية قتل حوالي عشرين رجلاً لا أكثر، لكن القتل الجماعي الذي وقع في القرية بعد ذلك أودى بحياة ما لا يقل عن ١٥٠ وحتى مائتي رجل. هذا الرقم تؤكده شهادة مردخاي سوكولر، وهو من كان بين المسؤولين عن دفن القتلى في الأيام التي أعقبت احتلال القرية، وهي شهادة قدمها في لقاءين منفصلين، وادعى أنه أحصى ما لا يقل عن مائتين وثلاثين جثة تم دفنها(٥).

إذا بقي في الطنطورة بعد ذلك ما لا يزيد على المائتي رجل وقعوا في الأسر، فإن معنى ذلك أنهم لم يكونوا سوى رجال القرية نفسها – حوالي مائتي شخص. ولو تم احصاء عدد أكبر من الرجال المائتين المسبيين في الطنطورة، لأمكن أن ننسب قسماً من هذا العدد للغرباء، الذين لم يكونوا من أبناء القرية. وبما أن العدد الاجمالي للأسرى لم يزد على الـ ٢٠٠، فإن امكانية تواجد غرباء بينهم ضعيفة للغاية. لكنه علاوة على ما تقدّم يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن عدداً معيناً من الرجال في القرية تمكنوا من الهرب منها في أثناء القتال – حسب شهادات بعض من قابلتهم لهذا البحث – الا أن الجميع متفق على أن عددهم كان صغيراً جداً.

من هنا نتوصل ثانية إلى اثبات إضافي بأن الغرباء لم يتواجدوا في الطنطورة في يوم احتلالها، إذ لو كان غير ذلك، فأين ذهبوا بعد الاحتلال، بموجب النبأ المطوّل والرصين الذي بأيدينا؟

وهناك مسألة أخرى جديرة بالفحص – «الخبراء الاوروبيون لخطة التحصينات». من هم أولئك الخبراء؟ وهل كانوا موجودين فعلاً؟

ليس واضحاً البتة ما إذا كان لهم وجود من الأصل. لا نملك ولا حتى شهادة مؤسسة واحدة تلمح إلى ذلك. معروف لنا أمر الاستعدادات والحراسة والاحاديث المعروفة عن التزود بالاسلحة بصورة مكثفة، لكنه لا يوجد أي شيء مكتوب او شفهي عن أي خبراء تحصينات من خارج البلاد، ومؤكد ليس من أوروبا، في كل ما يخص الطنطورة.

عموماً، فإن شائعات تردّدت عن ضباط وجنود بريطانيين انتقلوا إلى الجانب الفلسطيني عشية الجلاء البريطاني، تبينت غير موثوقة، باستثناء حالة واحدة معروفة عن شرطي أو ضابط شرطة بريطاني غير مهم في قرية الطيرة، القريبة من حيفا، توجد بخصوصه أيضاً شكوك حول دوره في عمليات الدفاع والنشاطات التي تمت في قرية الطيرة. وهناك خلافات أيضاً في مسألة انتقال هذا البريطاني بعد سقوط الطيرة في منتصف يوليو ١٩٤٨ إلى إجزم أم لا؟

نطالع في «هآرتس» من ذلك اليوم، ٢٤/٥/١٩٤٨، تحت عنوان «احتلت قرية الطنطورة» صيغة مشابهة لتلك المنشورة في الصحف الأخرى، لكنها توسعت قليلاً بل كانت الوحيدة التي أشارت بالأرقام إلى خسائر السكان:

«بعد معركة ضارية احتلت قواتنا في صبيحة يوم الأحد قرية الطنطورة الواقعة في محيط زخرون يعقوب. أُخذ المئات من العرب المسلحين في الأسر، واستولت قواتنا على غنائم كثيرة من السلاح. تحولت قرية الطنطورة في الآونة الأخيرة إلى قاعدة بحرية للعدو، الذي كان يهرِّب عبرها السلاح والرجال إلى أرض اسرائيل.احتلت القرية التي كانت محصنة جيداً بعد أن طوقها الجيش العبري. كانت خسائرنا خفيفة. ولحقت بالعدو خسائر جسيمة: أربعون قتيلاً وجرحى كثيرون. نقل جنودنا النساء والأولاد من الطنطورة إلى قرية الفريديس وإلى زخرون يعقوب. ولا تزال منتصبة في مكانها البناية التي استخدمت مرة مصنعاً للزجاج، كان أقامه البارون روتشيلد، وتولى المرحوم ديزنغوف إدارته. تقع القرية على بعد ثمانية كيلو مترات من زخرون يعقوب»[٦].

يتحدث هذا النبأ عن «المئات من العرب المسلحين» ممن وقعوا في الأسر. ولا يذكر في أي سياق وجود أية امكانية ما لأن يكون بينهم مقاتلون غرباء. وبموجب جزء من الخبر يتضح لنا أن الصحفيين توصلوا في حقيقة الأمر إلى نفس المادة، وهنا يمكن أن نسأل بطبيعة الحال أية صيغة أصدق، ذلك أن جميع الأخبار تثير أسئلة حول ملاءمتها للشهادات الأخرى التي بأيدينا، شفهياً وكتابياً.

وفيما يتعلق بالخسائر البشرية، في صفوف «قواتنا» وفي صفوف «العدو»: جاء في الخبر أن «خسائرنا كانت خفيفة». حقاً!؟ معروف لنا أن ١٤ جندياً اسرائيلياً سقطوا في الطنطورة. وفي هذا الموضوع يجدر السؤال: من يقرر نوعية الخسائر «الخفيفة» وبموجب أية مقاييس، ومتى يتغير التعريف ومن يحق له أن يغيره؟. وهناك سؤال إضافي: هل يعد أربعون قتيلاً «خسائر جسيمة» في مكان ما بينما يعتبر ١٤ قتيلاً «خسائر خفيفة»؟ ظاهرياً – لا توجد ثقة تامة بأن الأمر بهذا الشكل، حسب جميع المقاييس.

كذلك فإن المنطق الداخلي الذي أملى التعبير «معركة صعبة» لا يتفق بالضرورة مع تعريف يبرز فيه تناقض كهذا الذي بين الخسائر «الخفيفة» من جهة و«الثقيلة» من الجهة الأخرى.

في ١٩٤٨/٥/٢٥ نشرت صحيفتا «هتسوفيه» و «داڤار» عنواناً كبيراً في صفحتهما الاولى: «أسر خمسمائة مصري في الطنطورة». لم يفصل النبأ تحت العنوان ما هو أكثر من ذلك: «علم أمس أنه مع احتلال الطنطورة أُسر خمسمائة مصري وغنائم كثيرة»[٧].

يدلنا العنوان المثير أعلاه على أنه قد يكون خمسمائة وربما أكثر من ذلك من الجنود المصريين اشتركوا في المعركة على الطنطورة (ذلك ان الـ ٥٠٠ هو عدد الأسرى فقط) في نطاق مشاركة مصر في الجهود الحربية الشاملة، كجزء من جيش التحرير العربي. إلاّ أن الأمر ليس كذلك على ما يبدو، ويمكننا أن نستدل على ذلك من تقرير منشور في صفحة داخلية من «كول هعام» بتاريخ ١٩٤٨/٦/٧. جاء في التقرير المنشور تحت عنوان «على امتداد الشارون»، بقلم أ. ب. ماجيل، أحد محرري «ديلي ووركر» النيويوركية، الذي تواجد آنذاك في البلاد ضمن زيارة له، ما يلي: «زرنا كذلك معتقلات الجنود المصريين الأسرى. تحدثت مع بعضهم. جميعهم قالوا لي أنهم قدموا إلى البلاد بصورة غير قانونية قبل ست – سبع سنوات. جاءوا إلى البلاد بحثاً عن لقمة

العيش، في بيارات البرتقال في الغالب، تاركين وراءهم آباء عجزة وإخوة وأخوات صغارا..»[٨].

إذن، يمكن الإفتراض بأن الشرح الذي استمع اليه ماجيل فيه ما يريح بال أي قارىء عادي بخصوص «الجنود المصريين الأسرى».

وعلى نقيض شبه تام مع الشرح الذي يتضمنه تقرير «كول هعام»، نقرأ العنوان التالي في صحيفة «معريف» من تاريخ ٢٦ /٥ /١٩٤٨: «انجليز وبولونيون – بين أسرى الطنطورة». ورد في الخبر: «يقول مراسلنا في الخضيرة أنه بين مئات الأسرى الذين أُسروا في الطنطورة يوجد انجليز وبولونيون، عملوا في خدمة العصابات العربية. وقد نقلت النساء والأطفال العرب للقرية المجاورة الفريديس. وعلم الآن أن غالبية سكان قرية الطنطورة هجرتها منذ فترة وأن السيطرة فيها كانت بأيدي رجال العصابات، الذين حوَّلوها إلى ميناء لتزويد العرب. سبق المعركة الفاصلة على القرية حصار بحري وبري»[٩].

في هذا الخبر القصير والمجهول المصدر والكاتب («مراسلنا في الخضيرة»)، تظهر عدة تفاصيل تتميز بالخصوصية شبه التامة[١٠]. أولاً، صيغة العنوان،الذي يقرر أن بعض الانجليز والبولونيين كانوا بين أسرى الطنطورة. لم نعثر في صحف ومطبوعات تلك الفترة على أية إشارة لهذه القضية. كذلك فإن من قابلتهم وأدلوا بشهاداتهم بهذا الخصوص لم يشيروا ولو بالتلميح إلى وجود بولونيين وانجليز، بين المدافعين عن القرية. من المهم تأكيد ذلك، لأن الشهادات القليلة الموجودة بأيدينا حول الغرباء في الطنطورة، مثل شهادة صالح ابو مشايخ (ابو محمد) مثلاً، تطرقت إلى جنود «جيش الانقاذ» من سوريين أو فلسطينيي الأصل، الذين لم يتواجدوا في القرية حسب نفس الشهادة، ومؤكد أنه لم يكن فيها انجليز أو بولونيون.

في كراسة «شاطىء دور»، تكتب المؤلفة يهوديت إيلون في الفصل الذي يتحدث عن «عملية الميناء»: «بعد احتلال حيفا بقيت للعرب قاعدة واحدة فقط، أمكنهم بواسطتها إقامة صلات مع الساحل عبر البحر، وهي قرية الطنطورة. هذه الحقيقة، وقدوم لاجئين ومتطوعين من «جيش الإنقاذ« غيَّرا موازين القوى الداخلية، وصارت يد المتطرفين هي العليا»[١١].

لا يمكننا أن نعرف اليوم بالتأكيد من هي مصادر «مراسلنا في الخضيرة»، لكن حسب شهادة موشيه جاك، أحد قدامى «معريف»، فإن الصحيفة تأسست في فبراير من ذلك العام، وفي تلك المرحلة كانت ما تزال مبلبلة تماماً، مع عدد قليل من المراسلين والصحفيين، من هنا هذا التساؤل الكبير عن مدى قرب «مراسلنا..» من المصادر عندما تلقى مادة تقريره[١٢]؟

وهناك جملة اضافية في تقرير «مراسلنا..» تثير التساؤل هي الأخرى، وتكشف للقراء أن «غالبية سكان قرية الطنطورة هجرتها منذ فترة». مجدداً نقف أمام خبر لا إسناد له تقريباً في أي مصدر، لا شفهياً ولا كتابياً، باستثناء وثيقة واحدة صادرة عن «شاي» (جهاز الاستخبارات التابع لمنظمة «هجناه»)، تقدم تفاصيل من التحقيق مع الأسرى من الطنطورة، يوم الرابع عشر من أيار ١٩٤٨، وسنتطرق إليها لاحقاً.

يشار هنا إلى أن معظم المصادر المعروفة تتفق على أن الأغلبية الساحقة من سكان الطنطورة كانت في القرية لدى احتلالها، وأن القرية هوجمت بصورة مفاجئة تماماً، في ساعة متأخرة من

الليل، بينما كان أهلها نائمين. علاوة على ذلك، تدل الأرقام المعروفة لنا عن الرجال الذين قتلوا في القرية والآخرين الذين تواجدوا فيها، بالإضافة للنساء والأطفال، على عدم وجود أية امكانية للتوصل إلى أي استنتاج كان بأن القرية فعلاً هجرت من غالبية سكانها.

مثلاً، في العدد الصادر يوم ٢٠/٦/١٩٤٨ من صحيفة «داڤار»، يظهر تقرير «بقلم مراسلنا»، يصف على مساحة عمودين «كيف نُقلت ألف امرأة عربية إلى المنطقة العربية». يصف الكاتب في تقريره رحلة اللاجئين من النساء والعجزة والأولاد والشبان المعوقين، من قرية الفريديس عبر بيت ليد، داخل ثلاثين سيارة باص، نحو خطوط العدو، وفيه يشير إلى الرقم ١٠٠٤ نسمة، معظمهم من الطنطورة. ومعلوم لنا أن عدداً من النساء والأولاد نجحوا رغم الترحيل المكثف بالتملص والبقاء في الفريديس هم وأبناؤهم حتى يومنا هذا، يضاف إليهم حوالي ٢٠٠ – ٣٠٠ رجل من الطنطورة، كانوا في تلك الساعة في سجون دولة اسرائيل، إضافة لحوالي ٢٠٠ – ٢٥٠ رجلاً قتلوا في المعركة وبعدها، كما سنتبين لاحقاً، لتكون النتيجة أن قلة فقط من بين ١٧٠٠ مواطن سكنوا الطنطورة غادرت قريتها قبل المعركة، أو، بالمقابل، نجحت في الهروب من الطنطورة ليلاً، خلال المعركة نفسها.

وبالتالي – الجملة الختامية في خبر «معريف» من يوم ٢٦/٥/١٩٤٨: «سبق المعركة الفاصلة حصار بحري وبري». مرة أخرى، فإن السؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما هو أو من هو مصدر هذه المعلومة، التي لا شبيه لها في باقي المصادر الأخرى التي نملكها؟ وبقدر ما هو معروف اليوم، من قادة العملية والمشاركين فيها وكذلك من لاجئي الطنطورة، فقد وقع الهجوم على القرية في الليلة الواقعة بين الثاني والعشرين والثالث والعشرين من أيار ١٩٤٨، وفي ساعة مبكرة جداً من صبيحة الثالث والعشرين من أيار ١٩٤٨ كانت القرية كلها محتلة بأيدي القوات الاسرائيلية. وبموجب ما نعرفه اليوم، ظهر قارب الكتيبة البحرية في شاطىء الطنطورة عند الفجر، بل إنه تمكن من حضور قسم من المعركة. والدليل على ذلك أن تبادل اطلاق نار وقع خطأ خلال المعركة بين قوات «الكسندروني»، التي لم تعلم مسبقاً أبداً بأمر مشاركة الكتيبة البحرية في العملية، وبين القارب، أصيب خلاله أحد افراد الكتيبة ويدعى مناحم كوهن اصابات قاتلة.

ها نحن اذن أمام خبر صحفي قصير، مكون من عدة أسطر، وكثير جداً من التفاصيل، التي تبدو للوهلة الأولى غير صحيحة من أساسها.

يتبين أن هذه الصيغة، التي تجمع بين قوات البحرية واليابسة في موضوع احتلال الطنطورة، وجدت لها قبولاً لدى خبير محترف مثل زئيف ڤلنائي، الذي يتطرق إلى القضية بكلمات معدودة يعرض فيها صورة تخلق الانطباع بوجود تساوٍ معين بين «قوات اليابسة» و «سلاح البحرية»: «احتلت الطنطورة بأيدي سلاح البرّ وسلاح البحرية»[١٣].

يستدل من القراءة في الوثائق الموجودة بأيدينا والمتعلقة باحتلال الطنطورة، مثل أمر تنفيذ العملية والاستعدادات المسبقة وتفاصيل العملية، كما تظهر في كتاب لواء «الكسندروني» أو في الأدبيات الباحثة في ذلك بالانجليزية أو العربية، وبقدر ما أمكننا فحص ذلك والعثور على شهادات مكتوبة، أن معركة اعتيادية للغاية جرت هنا تغلبت فيها – كما كان في أماكن أخرى

كثيرة – القوات الأكبر والأمضى تجربة، القوات الاسرائيلية، وفي ذلك تكمن عملياً خلاصة الحكاية[١٤].

في وثيقة من يوم ١٠/٥/١٩٤٨، تحت عنوان «تفاصيل عن قرية الطنطورة»، موجهة إلى «الكسندروني» وصادرة عن «تيروشي» نطالع تفاصيل إضافية أخيرة عن القرية، في وقت كانت فيه خطة احتلالها وموعد ذلك، على ما يبدو، أيضاً جاهزة، ضمن أجندة القيادة العامة للأركان على الأقل، إذ أننا نملك من تلك الأيام برقيتين على الأقل تشهدان على وجود نية لتنفيذ عملية احتلال الطنطورة في النصف الأول من شهر أيار: في برقية من شعبة العمليات إلى «كرميلي» وإلى علم «الكسندروني»، تأمر شعبة العمليات «كرميلي» بـ«الاتصال سريعاً مع الكسندروني بخصوص عملية مدمجة في منطقة إجزم – الطنطورة»، وهناك برقية أخرى من اليوم التالي صادرة عن «يدين» إلى «الكسندروني»، يسأل فيها الأول عن المدة التي ستؤجل اليها عملية الطنطورة[١٥].

هذه الوثيقة مهمة للغاية بفضل عدد من التفاصيل الظاهرة فيها، بما في ذلك التناقض الحاد في موضوع تواجد الغرباء في القرية، بالقياس مع وثيقة أخرى صادرة قبل ذلك بثمانية أيام فقط، وتعود إلى يوم ٢/٥/١٩٤٨، وتتحدث عن «حالة الامن في قرية الطنطورة»، وهي موجهة من «حيرام» («حيرام»، شعبة تابعة لـ«شاي»، جهاز الاستخبارات الذي سبق سلاح الاستخبارات العسكرية في الفترة التي سبقت اسرائيل) إلى «تيني».

وثيقة الثاني من أيار ٤٨ قصيرة نسبياً، وتبحث في عدة مسائل:

أولاً، وصفت الوثيقة لدى مرسليها بأنها «جادة»، وهو تصنيف مرتفع جداً من ناحية التعامل مع مضمونها الذي يظهر في عدد قليل من الوثائق نسبياً.

يتحدث البند الاول من الوثيقة عن وجود مجلس قروي في الطنطورة، فيه رئيس مجلس وثلاثة أعضاء، وهنا نتساءل: هل كان الأمر متبعاً أيضاً في كل قرية وقرية، أم أن ظروفاً خاصة أملت وجود هذا المجلس؟ حتى أن الكثيرين من لاجئي الطنطورة ممن قابلتهم في نطاق هذا التحقيق لم يتذكروا أمر وجود المجلس المذكور، ومن هنا يجوز القول أنه لم يكن هيئة رسمية ومأسسة، بل تمثل في عدد من الوجهاء كبار السن، ممن أدركوا ضرورة ذلك أو تلقوا تكليفاً من المختار الجديد بمرافقته في خطواته الأولى في منصبه، محاولاً – في فترة خاصة وصعبة – تقمص دور سابقه الكبير جداً. بل إنهم تطرقوا إلى موت مختار القرية العريق داهود الحاج سليمان الهندي، قبل الحرب بوقت قصير، مشيرين، بل مؤكدين، بأنه لو كان المختار داهود حيّاً عند اندلاع الأحداث لما حدث شيء، وذلك لأن داهود الحاج كان مقبولاً جداً عند اليهود، وكان مرجعية عليا لدى كافة أبناء الطنطورة مدة طويلة من الزمن.

ثمة إشادة بالمختار داهود الحاج سليمان الهندي في وثيقة سابقة في ملفات «شاي» من العام ١٩٤٢، جاء فيها أنه «ميال للحكومة، ومعين من جانبها، ومحبوب لدى سكان القرية»[١٦]. وقد ورد في الوثيقة قبل ذلك بعدة أسطر: «العلاقات العائلية بينهم جيدة. لا نزاعات ولا انتقامات دموية. وكذلك الحال مع القرى المجاورة»[١٧].

وهذا ما قاله عيسى ذيب البسيطي – أبو مصطفى – إبن أخت داهود الحاج، عندما كان في الـ ٨٦ من عمره، لدى مقابلته: «لو عاش المختار وقت الحرب، لكان منع كافة المشاكل وربما الحرب في المنطقة كلها أيضاً، وسأقول لك لماذا: كان داهود الحاج مختار الطنطورة مدة حوالي أربعين عاماً، ولم يكن في المنطقة كلها أحد عربي أو يهودي لم يعرفه أو يحترمه أو يقبل سطوته، بمن فيهم شبان الطنطورة المتمردون والرافضون... ولعل المنطقة كلها كانت ستستسلم بدون حرب. قبل «النهاية» بثلاثة شهور تقريبا توفي داهود الحاج، الذي كان مريضاً بالسكري. ذات يوم خرج واعتزم ركوب سيارة كانت بانتظاره لتقله إلى المستشفى في حيفا لتلقي علاج اعتيادي، لكن قدمه تعثرت فسقط ومات في الحال. خلفه رجل من عائلة الدسوقي (في ضوء ما جاء في وثيقة ٢ / ٥ / ١٩٤٨ من أن رئيس المجلس كان الحاج أحمد اليحيى، نسأل: هل عمل هناك مختار بالإضافة إلى رئيس المجلس؟ هذا ما نجهله حتى الآن) كان جديداً في منصبه وليَس له أي تأثير عملي على الشبان وتصرفاتهم، وعندما جاء اليهود محاولين إجراء مفاوضات مع القرية حول استسلام محترم لها، قبل النهاية بعدة أيام، بدا الأمر من دون أمل تماماً»[١٨].

أما البند المركزي في الوثيقة من يوم ٢ / ٥ / ١٩٤٨ فهو البند الذي يتحدث عن «أفراد العصابة الغرباء». يتحدث البند عن ستين شخصاً تقريباً يعيشون في مسجد القرية، وعن قائد هو ضابط يوغسلافي وصل القرية في ٢٠ / ٤ ويعيش في بيت أهرونسون (امتلكت عائلة أهرونسون من زخرون يعقوب بيتاً في الطنطورة، يبدو أنه بقي من دون استعمال في تلك الأيام)، وعن أن «أفراد العصابات الغرباء يعيشون على حسابهم ويشترون متطلباتهم من دكاكين القرية». يكرس كاتب الوثيقة ملاحظة أخرى «لأفراد العصابات» قائلاً أن لديهم راجمات وآلات لإطلاق النار، بالإضافة إلى الأسلحة الخفيفة.

تجدر الإشارة في هذه النقطة إلى أن ما ذكرته الوثيقة عن «ضابط يوغسلافي» قد يكون إنساناً أصله من البوسنة (اليوغسلافية) التي تقطنها غالبية مسلمة، وينتمي إلى عائلة «البشانقة» (ومن مشتقات البوسنة بالعربية) التي جلبها العثمانيون للمنطقة في مطلع القرن لاعتباراتهم الخاصة، فأصبحوا مع الوقت عنصراً ذا وزن بين سكان قرى عرب البره وجسر الزرقاء.

تتحدث الوثيقة المفصلة والمطولة من يوم ١٠ / ٥ / ١٩٤٨ عدة مرات عن الجنود الغرباء من جيش التحرير، الذين «رفعوا روح الاستعداد لدى قسم من سكان القرية»، وأنه «منذ قدوم الغرباء بُدىء بتحصين القرية وحفرت مواقع دفاعية في نقاط المراقبة حول القرية وغير ذلك»، وفي نفس الوقت نجد بنداً خاصاً ومستقلاً لموضوع «الغرباء»، وفيه – خلافاً للبنود الأخرى في الصفحة نفسها – أنه «لم يعد وجود للغرباء في القرية، بعد تسلل جنود جيش التحرير من هذه المنطقة إلى منطقة وادي عارة».

ازاء التناقض البارز بين الوثيقتين وبين بنود الوثيقة نفسها، يخيل أنه من الصعب جداً أن نقرر بصورة مؤكدة في ما إذا كان هناك غرباء في الطنطورة أو لم يكن في يوم المعركة عليها، في الليلة الواقعة بين ٢٢ – ٢٣ أيار ١٩٤٨. وبما أن لهذا الموضوع أهمية حاسمة برأي الكثيرين، تجدر الإشارة إلى أن جميع رجالات الطنطورة (باستثناء واحد فقط) ممن تطرقوا في مقابلاتي

معهم لموضوع الغرباء هذا، ادعوا بصراحة أنه لم يكن في القرية غرباء لدى احتلالها.

في ضوء الإشارة الصريحة إلى أن الغرباء الستين («افراد العصابات») المتواجدين في القرية يعيشون في مسجدها، يصعب الحديث عن وضع يتم فيه نشاط كهذا في المسجد الوحيد الموجود في القرية ولمدة طويلة، بينما لا يعرف سكان القرية، الذين يصل بعضهم الجامع مرتين – ثلاث يومياً، أي شيء البتة عن هذا الأمر. من هنا يتبين أنه لا مناص من التشكيك بصدقية شهادة حوالي عشرين لاجئاً من مهجري القرية، أو التشكيك بصدقية الوثائق التي تتحدث عن ذلك.

مهما يكن الأمر، من المهم معرفة ما عرفه او فكر فيه الجنود المقاتلون الذين يعرفون بوجود غرباء في الطنطورة.

طوڤيا هيللر (من مواليد ١٩٢٨، وقد وصل البلاد عام ١٩٣٦)، كان بين المشاركين في عملية «الميناء» كقائم بأعمال قائد في كتيبة «أ»: «عرفنا بوجود أفراد عصابات في القرية. كانت القرية كلها رجال عصابات. هذا ما قيل لنا قبل بدء العملية في إطار الاستعدادات لها. عندما دخلنا القرية تبين أن أفراد العصابات هربوا سلفاً منها، مشياً على الأقدام، باتجاه الشرق على ما يبدو، عبر نفق قريب من سكة القطار. اعتمدوا طريقة قتال ضد أفراد عصابات، وليس ضد جيش نظامي. جلبوا خصيصاً شخصاً من زخرون يعقوب عرف أهل الطنطورة، ليتعرف على المختار والسكان وأفراد العصابات، الذين يبدو أنهم لم يتواجدوا لدى احتلال القرية»[١٩].

استمعت من سامي توفيق محسن (أبو توفيق) لأول مرة عن صلاح أبو مشايخ، قبل أن أتعرف عليه شخصياً: «تتردد في منطقتنا حكاية عن شاب اسمه صلاح أبو مشايخ، جاء من ذنابه الموجودة في قضاء طولكرم، وهو من عائلة «تفال»، جاء وحده تاركاً عائلته كلها في الضفة الغربية. يقولون أنه تعاون مع اليهود، وفي ذات يوم ذاق علقة ساخنة من أهل الطنطورة بعد أن أمسكوا بارودة بحوزته... وعن ذلك قالوا في ما بعد مبالغين أن «الطنطورة خربت من تحت راس باروده»..»[٢٠].

بحثت بناء على توجيهات «أبو توفيق» فعثرت على «أبو مشايخ» المذكور في قرية جسر الزرقاء. بدت حكاية الشخص التي استمعت إليها على عدة جلسات مثيرة بوجه الخصوص: ولد صلاح عبد الرحمن أبو مشايخ (أبو محمد) في قيساريه، في قرية عرب البره، في عام ١٩٢٢، وهو متزوج من امرأة اصل أمها من الطنطورة (من دار أبو جاموس). كانت عائلة أبو محمد من بين العائلات التي جلبها العثمانيون إلى البلاد من البوسنه. كان أبو محمد في الطنطورة لدى احتلالها في ظروف لم يرد التوسع في الحديث عنها في البداية. خلال الحديث معه وبعد الحاحي بالأسئلة أوحى أبو محمد أنه عمل في الواقع متعاوناً مع اليهود، ويبدو أنه وصل الطنطورة بهذه الصفة في مرحلة معينة، قبل المعركة على القرية بعدة شهور. يقول إنه تواجد في القرية حوالي ثلاثة شهور، وسكن عند شخص يسمى محمد أبو عابود. سنعود إلى «مهمة» أبو محمد في الطنطورة خلال المعركة وبعدها، في قسم آخر من شهادته، التي اعتبرها مهمة مثيرة، لكننا سنشير فقط في هذه المرحلة إلى أنه بعد انتهاء فصل الطنطورة عاد هذا الشخص لفترة معينة إلى عرب البره، وعندما أخليت هذه القرية أيضاً واصل طريقه عبر باقة الغربية إلى طولكرم.

بعد فترة قصيرة، ونتيجة لصلاته على ما يبدو، عاد وسكن في جسر الزرقاء، وبقي متصلاً بجهاز المخابرات حتى عام ١٩٦٨.

يقول أبو محمد: «كان في القرية آنذاك ٤٠ – ٥٠ جندياً سورياً، مضى على تواجدهم في القرية حوالي العام. كانوا ٢٥ جندياً في البداية، ارتفع عددهم إلى خمسين تقريباً. علَّموا أهل القرية استخدام السلاح وأساليب الدفاع والقتال في مكان يقع على شاطىء البحر ويسمى كراكون»[٢١].

في سياق البحث في مسألة الغرباء في الطنطورة – هل كانوا أم لا – يجدر التنويه إلى فقرة في «تقرير عما يجري في حيفا في يوم الخميس ١١/٣/١٩٤٨»، والموجّه إلى «تيني» من «حيرام»: «وصلت قرى الطنطورة والطيرة وأُم الزينات كميات من السلاح وألبسة للمتطوعين من أبناء البلاد الذين سيتم تجنيدهم في الأيام القريبة»[٢٢].

تتضمن هذه الفقرة – بقدر ما يمكن الاعتماد على مضمونها – ما يمكنه من جهة أن يؤكد إلى حد معين على أقوال «ابو محمد»، وحقيقة أنه كان في القرية جنود غرباء لا محليين، ومن جهة ثانية نجد فيها ما ينقض اقواله، ذلك أنه تحدث في شهادته عن جنود من سورية، تواجدوا ثم رحلوا، وليس عن جنود من أبناء البلاد. هناك إمكانية لتسوية هذا التناقض وذلك بالتنويه إلى إمكانية ان قسماً على الأقل من جنود «جيش الانقاذ» الذين قدموا في نهاية المطاف من سورية هم فلسطينيون من أبناء البلاد، كانوا قد غادروا في موعد سابق إلى قَطَنه في سورية، للتدريب والعودة إلى البلاد كمقاتلين.

شاهد مركزي لشؤون الطنطورة في هذا البحث هو عبد الرزاق اليحيى (أبو أنس) (...)، هو من هذه الناحية نموذج جيد لابن الطنطورة الذي قطع نفس المسار، وإن كنا نفهم من شهادته أنه شخصياً لم يعد ثانية إلى البلاد كمقاتل في «جيش الإنقاذ» الذي التحق به، وهو ما سنعود اليه لاحقاً.

تتفق أقوال «أبو محمد» حول الغرباء مع المعلومات الواردة في الوثائق التي نملكها، حول دور الغرباء في الدفاع عن القرية، حيث ورد في وثيقة «تفاصيل عن قرية الطنطورة» الرقم ٦٠ غريباً. وهنا لا بد أن نسأل: ألا يجوز أن يكون صلاح أبو مشايخ بنفسه، والذي شهد أمامي أنه متعاون مع المخابرات الاسرائيلية منذ العام ١٩٤٧، مَنْ نقل المعلومة عن القرية إلى عناصر الجيش؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإننا نقف أمام شهادة «أبو محمد» من جهة في مواجهة شهادات بقية أهل الطنطورة من الجهة الثانية. في مثل هذه الحالة تم التوصل إلى حل لمسألة مصدر المعلومات في الوثائق، لكننا لا نملك رداً قاطعاً حول الحقيقة في هذه المسألة. في مقابلة إضافية أجريتها مع «أبو محمد» وافق بالتأكيد على احتمال أن يكون هو شخصياً مصدر المعلومات التي كانت بأيدي الاستخبارات العسكرية عن الطنطورة، لكن «أبو محمد» لم يتمكن من تقديم الضمانات بأنه لم يكن الوحيد من نوعه، كما يشهد على نفسه: «دائماً عملنا في حلقات ضيقة. لكل واحد رجل الارتباط الخاص به، وفي معظم الحالات لم أعرف ولم أعلم مَنْ غيري يعمل في المنطقة، وهل كان هناك غيري من الأصل. كنت التقي رجل الاتصال مرة كل أسبوع، أو كل أسبوعين أو كل شهر. وأحياناً كل عدة أيام، حسب الحاجة»[٢٣].

وفيما يخص دور الغرباء في ليل المعركة على الطنطورة – بموجب «أبو محمد»، فإن «كافة الغرباء تمكنوا على ما يبدو من الهرب في بداية الليل على ظهر اللنش الخاص بهم، باتجاه حيفا والشمال، من دون الاشتراك في المعركة بتاتاً».[٢٤].

من الصعب أن نحكم اليوم، بعد ٤٩ عاماً على وقوع الأحداث، في أي جانب تقع الحقيقة، ولا أعتزم القيام بذلك، لكن هناك حاجة لبذل كل ما يجب لتوسيع دائرة الشهادات من جهات وأشخاص مختلفين، وبخاصة في المواضيع ذات الصيغ المختلفة، أو حتى المتناقضة.

رزق عشماوي («أبو سعيد») من مواليد الطنطورة، وهو في الثانية والستين اليوم. وحسب شهادة «أبو سعيد»، فإن منزل اسرته تواجد قريباً من الجامع، وبما أنه كان صبياً فعالاً عرف كل زاوية في القرية، فإنه يشهد على نفسه بأنه اطلع على كل ما دار فيها. وفي استيضاح إضافي أجريته معه، حول دور الغرباء في الحرب في الطنطورة، تطرق «أبو سعيد» إلى إمكانية تواجد غرباء في القرية عشية المعركة التي سقطت فيها الطنطورة: «هذا هراء تام. لم يكن أي غريب في القرية، وبالتأكيد ليس في الجامع. لا شك بأني كنت سأراهم لو كانوا وأعلم بوجودهم، فقد سكنت على بعد أمتار فقط من الجامع وتجولت في محيطه طيلة النهار. كذلك لم تكن هناك حاجة. كان لدينا شبان كثيرون تم تسريحهم مع أسلحتهم من خدمة البريطانيين، من الشرطة وخفر السواحل وغيرها، وهم من علَّم الجميع استخدام السلاح وأساليب القتال والدفاع عن النفس»[٢٥].

في استيضاح استكمالي جرى مع صالح أبو مشايخ، ادعى «أبو محمد»، خلافاً لما يظهر في وثيقة الأخبار من ٢/٥/١٩٤٨: «أن الغرباء لم يسكنوا في المسجد. كل من يقول ذلك لا يفهم شيئاً. سكن الغرباء في بيت عائلة يحيى الكبير (وهي عائلة كبيرة جداً، بل أكبر عائلات الطنطورة) على شاطىء البحر... ولا يمكن أن نقول أن أحداً لم يرهم، فقد تجولوا بزيّهم، ورتبهم العسكرية، بعضهم ضباط والبعض ملازمون، كانوا يجلسون في المقاهي ولم يتخفوا عن عيون أحد».

ويدلي «أبو محمد» بمزيد من الإيضاحات: «لم يتواجد الغرباء في القرية كل الوقت. جاءوا وذهبوا، وبمجيئهم كانوا يجلبون معهم السلاح والذخيرة وما يلزم من معدات... في ليل الهجوم على الطنطورة لم أرهم بالمرة... لعلهم انصرفوا فقط بعد بدء القتال... عندما لاحظوا أن القرية مطوقة من جهات اليابسة الثلاث، ولعلهم فعلوها قبل ذلك، حتى من دون أن يعرفوا بموعد الهجوم الدقيق... مهما يكن من أمر، لم أر أحداً منهم في ليل القتال، طيلة تلك الليلة، عندما أمكن لحضورهم أن يكون ذا قيمة كبرى، وربما حاسمة»[٢٦].

وعن تواجد مائتي شاب في الطنطورة، كانوا قد تسرَّحوا منذ فترة قصيرة من سلك الشرطة، وخفر السواحل وغير ذلك لدى البريطانيين، بأسلحتهم الشخصية، حكى لي وبتوسع فوزي محمود أحمد طنجه (أبو خالد) من مخيم اللاجئين في طولكرم: «قبل ما راحت الطنطورة بأسبوع، تسرَّحنا، أكثر من مائتي شاب، من خدمة البريطانيين، مع انتهاء الانتداب على البلاد في يوم ١٥/٥/١٩٤٨ وعدنا إلى القرية. اخذ كل واحد منا معه بارودته الخصوصية، وهي بارودة

انجليزية، دون أي اعتراض من البريطانيين. بالعكس! حتى أنهم شجعوهم على أخذها... واضح أننا أخذنا على عاتقنا مهمة الدفاع عن القرية. لم نرغب، وكذلك خفنا، أن نستسلم كالبقية. كان ذلك بعد أن استسلمت الفريديس وجسر الزرقاء وصرفند وكذلك كفر لام، وسرت شائعات بأن الجيش العربي في الطريق وأن من يستسلم سيعاقب... ترددت شائعات كثيرة في تلك الأيام، عاش الناس وتحركوا بموجبها»[٢٧].

وردا على سؤال عن الجنود الغرباء القادمين من خارج الطنطورة، قدم «أبو خالد» إجابة قاطعة: «لم يكن هناك جنود غرباء في الطنطورة أبداً! سمعنا شائعات عن ذلك في ما بعد، لكن ذلك ليس حقيقة».

في سياق هذا الرد الأخير من «أبو خالد» بأنه لم يكن غرباء في الطنطورة بالمرة، يجدر بنا أن نعلم أن كتاب «الكسندروني» الذي يقدم قصة المعركة يشير إلى شيء بهذا الخصوص: «بعد احتلال مصنع الزجاج هرب العرب جنوباً، نحو المقبرة العربية، هناك طالتهم نيران الكتيبة. تواجدت جثث العدو الأولى في المقبرة، بعضها لابس كوفيات حمراء ومتقلد حزام الذخيرة، على طريقة رجال العصابات»[٢٨].

هل يتوجب علينا أن نستنتج من ذلك أن غرباء كانوا في الطنطورة؟ لا نعرف.

سنعود إلى رزق عشماوي هذا في السياق، للحديث عن قضايا إضافية تخص الأحداث في الطنطورة، لكن ما تزال امامنا معلومة لا بد من فحصها في ضوء شهادة صالح أبو مشايخ؛ أثناء مقابلته تطرق «أبو محمد» إلى إمكانية وجود أشخاص آخرين في المحيط القريب أو البعيد ممن يستطيعون الإدلاء بشهادتهم حول أحداث ١٩٤٨ في الطنطورة. ولشدة المفارقة، فإن «أبو محمد»، الذي يبدو حاد الذهن للغاية في بقية أقواله، قرر على مسامعي بصورة قاطعة وصريحة أن شخصا إضافياً من قريته جسر الزرقاء تواجد في حينه في الطنطورة لم يعد بين الاحياء، وأن أولاده جميعاً أصغر من أن يعرفوا ويتذكروا شيئاً، أما شقيقه الأكبر منه، فيعيش في الفريديس، لكن لم يعد ممكنا التحدث اليه بسبب سنه وحالته الصحية.

(...)

وفي ذلك ما يضع علامات سؤال على أقوال هذا الشخص، ويثير سؤالاً اضافياً حول ما أخفاه ولم يرغب في الكشف عنه.

حسب أقواله، فإن زهدي سليمان أبو ندى (أبو سليمان) ابن لإحدى العائلات العريقة في الطنطورة، ومولود في سنة ١٩١٧، في فترة الحكم العثماني. بعد سقوط القرية تنقل زهدي وشقيقه الأكبر منه، صبري، بين السجون وفي معسكرات الأسرى في أرجاء البلاد، إلى أن حطَّ المطاف – بعد تحررهم – بزهدي في جسر الزرقاء وأخيه صبري، المتوفى قبل فترة وجيزة، في الفريديس.

التقيت في جسر الزرقاء – بالإضافة إلى الأب زهدي – ابنه البكر سليمان، المولود في العام ١٩٣٨، وجميل، شقيقه الأصغر، المولود في العام ١٩٤٨، وقبل ذلك كنت قد التقيت في الفريديس أخاً إضافياً هو محمد المولود في العام ١٩٤٢[٢٩].

سنحاول في سياق المادة التعمق في فحصنا لمسألة ما إذا كان صالح أبو مشايخ قد كشف شيئاً وحاول إخفاء أشياء، وأسباب ذلك. وسنورد بالطبع أقوال أبناء عائلة أبو ندى، التي سمعتُ أخبارها أيضاً من شهادة مردخاي سوكولر من زخرون يعقوب، حارس الحقول العريق الذي سنحتاج شهادته لاحقاً[٣٠].

يقرر البند الأخير من وثيقة «حيرام» إلى «تيني» من يوم ٢ / ٥ / ١٩٤٨ – تحت عنوان «سلاح رجال القرية» – أنه «يوجد سلاح في كل بيت في القرية من دون استثناء. وهم يقومون بتهريبه عبر البحر». أما الوثيقة الثانية المؤرخة لاحقاً من تاريخ ١٠ / ٥ / ١٩٤٨ فمفصلة أكثر، وهي أقل حزماً في تحديد عدد الأسلحة في القرية. يدور الحديث في هذه المسألة عن قرابة ثلاثمائة مسلح، وكانت التقديرات بشأن الأسلحة على النحو التالي: ١٠٠ بارودة، ٤ مدافع، ٥ راجمات (؟) وعشرات المسدسات.

في الوثيقة المذكورة من ١٠ / ٥ / ١٩٤٨ يظهر عدد آخر من التفاصيل التي تشد انتباهنا. في الفقرة المسماة «القرية أثناء تطور الأحداث»، يستعرض الكاتب الأحداث في الطنطورة، كمن هو راغب في شرح وتبرير الهجوم المخطط قريباً: «مع بدء الأحداث كانت القرية هادئة، أغلقت على نفسها وقطعت علاقاتها بالمستوطنات اليهودية. مع نشاطات العرب في شارع حيفا – تل أبيب قرب عين غزال – جبع وعمليتنا في قيسارية، أصبحت القرية ملاذاً لعدد من سكان قيسارية، عرب البره والغوارنه. مع مجيء جنود من جيش التحرير إلى المنطقة... قدم إلى القرية ٥٠ – ٦٠ جندياً، انشغلوا قليلاً في حماية القرية وتحصينها»[٣١].

هنا نطالع مقطعاً مهماً يجدر الانتباه إليه بشكل خاص، بخصوص تقديرات كاتبي الوثيقة لقدرة قرية الطنطورة على الصمود: «بعد سقوط حيفا ومجيء اللاجئين، كانوا يستعدون عملياً للاستسلام. غياب المبادرة من جانبنا في هذا الموضوع من جهة، ومجيء أناس من حيفا من جهة أخرى (عائلة المصري) أعادت رفع روح الاستعداد لدى قسم من سكان القرية. إجمالاً، يجدر التنويه إلى أن قسماً كبيراً من السكان مستعد اليوم للاستسلام»[٣٢].

وفي نهاية الفقرة ذاتها، يقدم كاتبا الوثيقة ما سيصير لاحقاً القضية الأساسية التي قد توفر السبب للعمل ضد القرية: «تستخدم الطنطورة اليوم مركز تزود لجميع قرى المنطقة. صلة المواصلات الوحيدة تتم عبر البحر، بواسطة عشرات القوارب، التي تنقل التزويدات والمعدات واللاجئين».

عملياً، تنقض هذه الفقرة جل ما جاء في مضمون الفقرة السابقة، بأن «المواصلات إلى القرية تتم بثلاث طرق: أ) طريق متفرعة عن شارع حيفا – تل ابيب، ب) طريق البحر (معروف أن القرية هي قرية صيادين)، ج) طريق القطار (بالرغم من أن الطنطورة بعيدة عن حيفا، إلا أنها متصلة عملياً وبصورة وثيقة بحياة حيفا من ناحية سكانية واقتصادية. الكثير من سكان القرية اعتمدوا في معيشتهم على حيفا كموظفين وتجار ورجال شرطة وطلاب).».

لو تفحصنا بتعمق ما هو مكتوب في الاقتباسين الأخيرين، لتوصلنا إلى أن مساري المواصلات بين حيفا وتل ابيب أو عبر القطار كانا مسدودين أمام اهل الطنطورة، وذلك من دون أي تلميح

إلى أن الطنطوريين تسببوا (كما هو الحال مع أهل جبع وعين غزال وإجزم، في مقطع الشارع المحاذي لبيوتهم) بنوع من المضايقة للمواصلات على الشارع على طول سكة الحديد، ومع ذلك قيل في ما بعد أن «صلة المواصلات الوحيدة تتم عبر البحر»، من هنا يمكن أن نتوصل بالتأكيد إلى أن الطرق الأخرى كانت مسدودة بوجه أهل الطنطورة، من دون اية تحرشات من جانبهم في الواقع.

يوسع «كتاب الكسندروني» قليلاً الحديث عن أحداث الطنطورة قبل احتلال القرية: «في مطلع ٤٨، ومع اندلاع حرب الاستقلال، انغلق أهل الطنطورة في قريتهم، وقطعوا صلاتهم بالقرى اليهودية المحيطة. حتى أواخر نيسان كانوا ما يزالون يتسلون بالوهم بأنهم سيتمكنون من مواصلة حياتهم الإعتيادية حتى تهدأ العاصفة. لكن معنويات أهل الطنطورة العامة تغيّرت في اعقاب هزيمة العرب في حيفا وإخلاء سكان قيساريه العرب. تبدّد الشعور بالأمان الذي أحسوا به من قبل. بدأ تدفق اللاجئين من حيفا وقيسارية وغيرهما من القرى العربية نحو الطنطورة، حاملين حكايات محزنة عن قوة السلاح العبري وهزيمة العرب النكراء». وهنا يصل الكاتب إلى نفس الرقم حول عدد الغرباء، الذي بحثنا فيه من قبل: «مع قدوم جنود جيش الإنقاذ إلى المنطقة وصل خمسون منهم إلى الطنطورة، وبمساعدة عدد من المنشقين من الشرطة البريطانية، أخذوا يحصنون القرية وينتظمون للدفاع عنها.

لم يكن بال قسم من سكان القرية مطمئناً من هذه الاستعدادات – فقد عرفوا انه مع تحويلها إلى قاعدة معادية لليهود، لن يتأخر اليوم الذي تصير فيه القرية هدفا لـ«الهجناه»، وأن مصيرها سيكون مثل مصير قيساريه. زد على ذلك: كان موسم الحصاد على الأبواب، وهو ما شكل سبباً مهماً إضافياً للمحافظة على حالة سلم مع اليهود. لكن يد المعتدلين كانت السفلى. احتلت الطنطورة مكاناً محترماً في خطط «جيش الانقاذ».[٣٣]

هناك شبه كبير بين الفصل الخاص بعملية «الميناء» في الطبعة الجديدة من كتاب لواء «الكسندروني» وما ظهر في الطبعة الأولى، وقد جاء فيه: «بعد احتلال حيفا، وطرد عرب قيساريه وعزل القرى العربية المحاذية لشارع زخرون يعقوب – حيفا عن امتدادها الخلفي، لم يبق للعدو سوى قاعدة واحدة يقيم عبرها علاقاته بالخارج عن طريق البحر – هي الطنطورة. لا عجب إذن أن تحولت القرية سريعاً إلى قاعدة تزويد رئيسية للمنطقة كلها. أقام أسطول من عشرات القوارب والسفن الصغيرة صلات دائمة مع لبنان ناقلاً إلى الطنطورة تزويدات من المعدات والسلاح وحاملاً معه اللاجئين إلى لبنان. ولولا قاعدة الطنطورة، لما تمكنت قرى «المثلث الصغير» من مضايقة حركة المواصلات اليهودية في شارع حيفا – تل أبيب، التي ازدادت في تلك الفترة.

وجود قاعدة للعدو داخل منطقتنا، هدد بالتعاون مع قرى «المثلث الصغير» بقطع شريان المواصلات الحيوي بين جنوب البلاد وشمالها، وهو أمر أخطر من ان يُسلّم به. وبعد أن فشلت محاولات التفاوض (التي أجراها أحد سكان زخرون يعقوب) تقرر احتلالها وتطهير ساحل البحر من قوات العدو»[٣٤].

لكي نتوصل إلى ضبط للحقائق هنا، لا بد من الإشارة إلى أن بعض من قابلتهم في نطاق عملي على هذا التحقيق، حاول الإدعاء، رداً على سؤال عن أسباب ودوافع القيام باحتلال الطنطورة، بأن أهل القرية تسببوا بمضايقات لحركة المواصلات، سواء في شارع حيفا – تل أبيب، الأبعد عن القرية، أو على سكة الحديد، المارة حتى يومنا هذا من جهة الغرب، قريباً من القرية ذاتها. وقد شهد بينتس فريدان، قائد كتيبة ٣٣ من لواء «الكسندروني»، ومن كان قائد عملية «الميناء» لاحتلال الطنطورة أن «معلوماتنا تدل على أن القرية مركز هام لتهريب السلاح عبر الميناء»[٣٥].

هذه المعلومة عن القرية وكونها «مركزاً هاماً لتهريب السلاح عبر الميناء» وردت في الواقع في أوامر العملية باعتبارها عاملاً أساسياً يتم توصيفه في بند «العدو»: «تشكل قرية الطنطورة قاعدة تزويد ووصل مع رجال العدو عبر البحر». وفي السياق يصف الكاتب في البند ذاته حجم القوات التي كانت – حسب معلومات استخبارية – «توجد في القرية، بحوالي مائة من رجال العدو المسلحين والمزودين بـ ٤ – ٥ رشاشات وعدد من المدافع من قطر ٣ إنش أو ٦٠ ملم»[٣٦].

نموذج آخر على نوعية المعلومات التي توفرت للقوات المقاتلة، من مجموعة: تركيز أخبار لواء «كرميلي» رقم ٤، من يوم ١٧ / ٥ /١٩٤٨: «شوهدت في الطنطورة ومحيطها عدة مرات مجموعات مسلحة متنقلة وأخرى موجودة في الاستحكامات الأرضية. أفرادها يضعون الخوذ الفولاذية ويملكون النواظير. يوجد في القرية حوالي ٧٥ مسلحاً يملكون أسلحة متطورة. أهل القرية خبراء بمواد التفجير بحكم كونهم صيادين»[٣٧].

من المعقول جداً التخمين بأنه لو كانت هناك معلومة معينة عن مضايقات لحركة المواصلات من جانب أهل الطنطورة، لكان فريدان ذكرها بهذا الشكل أو ذاك، فقد جاء في الفصل الذي يحمل العنوان «قوة القرية الدفاعية» من الوثيقة العائدة ليوم ١٠ / ٥ /١٩٤٨ أنه «بعد سقوط حيفا قطع السكان الطرق المؤدية إلى القرية من جانب الشارع الرئيسي»، إلا أن عملية كهذه بحد ذاتها – إغلاق المدخل الرئيسي للقرية – لم تكن سوى خطوة دفاعية خالصة[٣٨].

جاء في مطلع ذلك الفصل، في معرض الحديث عن قوة القرية الدفاعية: «تقول المعلومات الأخيرة حول الأمن في القرية: الحراسة في النهار تتلخص بالمراقبة فقط، وفي الليل يحرس حوالي مائة شخص على ورديتين». يبدو أن مصدر هذه المعلومة هو «أبو محمد»، وهي – في كل الأحوال – ما يقول أنه يتذكر أنه نقلها[٣٩].

يتذكر «أبو خالد»، الذي كان واحداً من الحراس، أرقاماً مختلفة قليلاً: «تسرحت من الخدمة لدى الانجليز قبل ذلك بأسبوع، والتحقت على الفور بنظام الحراسة في القرية. كان لنا في الشمال موقعان، في كل واحد أربعة اشخاص، وفي الجنوب موقعان في كل منهما أربعة أشخاص، وفي الجهة الشرقية التي كانت جهة المدخل الرئيسي للقرية ستة مواقع، في كل واحد منها أربعة. هذا يدل على أن أربعين شخصاً اشتركوا في وردية الحراسة هذه»[٤٠].

يستدل من هذه المعطيات أنه إذا كان الرقم الأساسي للوردية المذكور أعلاه هو ٤٠ بالفعل،

فذلك يعني أن مجموع الحراس لم يزد على الثمانين، أو أن عدد الورديات كان ثلاثاً لا اثنتين، وفي جميع الأحوال فإن شيئاً من الأرقام التي بيدنا غير صحيح. ويتبين أن البحث في هذه المسألة هام للغاية، وذو دلالات كبيرة، ونحن في صدد فحص حجم القوات الاسرائيلية التي هاجمت القرية، لكي نفهم جيداً مراحل المعركة، وكذلك لوجود أهمية لفحص عدد القتلى من الجانبين، وهو ما سنعالجه لاحقاً.

يحمل الفصل الأخير ولعله الأهم من الوثيقة العائدة للعاشر من أيار ١٩٤٨ عنوان «تطورات محتملة في حال الهجوم على القرية». يوضح كاتب الوثيقة في هذا الفصل أنه «يمكن الإفتراض بأن الطنطورة لن تحصل على أية مساعدة في حال وقوع هجوم يهودي عليها»، وينوه إلى عدة أسباب لذلك:

«أ) عدم تواجد جيش التحرير في المنطقة.

ب) ليس وارداً بالحسبان وصول تعزيزات عبر البحر من عكا أو يافا.

ج) كذلك لا يجب الافتراض بأن سكان قرى الطيرة وجبع والمزار وإجزم وعين غزال والفريديس سيهبّون لمساعدة الطنطورة، نتيجة وضعهم النفسي الصعب بعد ما حدث في حيفا وما تكشفوا عنه من ضعف مع خروج الغرباء».

وردت بعد البند الثالث ملاحظة داخل قوسين، تناقض ما قيل من قبل، في البند نفسه: «(لا نوصي بالاعتماد على ذلك ولا بتخصيص قوة لقطع قرى إجزم وعين غزال)».

هذه الصيغة التي جاء عليها البند الثالث وكذلك الملاحظة الملحقة به – وهما الشيء ونقيضه – هي حقاً مربكة ومضلّلة وتبقي، ليس صدفة على ما يبدو، على هامش واسع جدا لمختلف التفسيرات وفهم الأمور. للدلالة على ذلك فإننا نعرف فعلاً بأنه بموجب تعليمات شعبة العمليات في هيئة الأركان، التي رغبت على ما يبدو في تجنب أي نوع من المخاطرة، فقد شاركت شعبة من كتيبة الحرس المتنقلة رقم ٢٤ التابعة للواء «كرميلي»، بقيادة أمنون لين، في قطع المنطقة الواقعة إلى الشمال من الطنطورة، أمام أي تدخل من جانب قرى «المثلث الصغير». وبالفعل، نحن نعرف بوجود محاولة لتدخل قوة عربية من جهة جبع – عين غزال، وإن كانت قوات «كرميلي» قد صدتها. وبموجب تقرير قائد الشعبة، فإن عملية القطع لم تحضّر جيداً في الوسط القيادي وبمستوى الكتيبة واللواء، وكانت نهايتها أن انتهت في المحكمة العسكرية، في ضوء سيرها ونتائجها (قتيل واحد، ثلاثة جرحى، وخسائر كبيرة نسبياً في السلاح)، وهو ما سنبحثه لاحقاً.

لدينا عدد من التقارير عن دور جنود «كرميلي» في عملية احتلال الطنطورة، جاء في واحد منها في الصفحة التي تبحث في تقديرات وضع الطرف الثاني: «نتوقع إن ترسل القرى الواقعة إلى الشرق من الشارع الرئيسي مساعدة للطنطورة في حال مهاجمتها». تناقض هذه المعلومة بالطبع ما جاء في وثيقة ١٠/٥/١٩٤٨ من أرشيف حركة العمل ٣٦/٧، الذي بحثناه في الصفحات الأخيرة. هذا تقرير كتبه ضابط استخبارات في كتيبة الحرس المتنقلة، باسم قائدها، من يوم ٢٦/٥/١٩٤٨، موجّه إلى «باروخ» (بموجب ريڤلين، ص ١٠١، فقد يكون ذلك الشخص هو يوحنان رطنر، من أشغل في السابق منصب رئيس القيادة القطرية للـ«هجناه»)، ويحمل

العنوان: «تقرير عن عملية مساعدة لاحتلال الطنطورة في ليل ٢٢ – ٢٣ / ٥ / ٤٨»[٤١].

أما المقطع الختامي من وثيقة ١٠ / ٥ / ٤٨ فهو عبارة عن «ملاحظة» يمكن لها أن تكون وحدها موضوعاً للباحثين للتعمق فيه. تبحث هذه الملاحظة في تقييمات أصحاب الوثيقة لإمكانية إخضاع قرية الطنطورة بواسطة تطويقها بالمسلحين وتقديم شروط استسلام معقولة، لكن أصحاب الوثيقة لا يمكنهم اتخاذ موقف قاطع تجاه مسألة سلوك المسلحين اليهود في حال استسلام القرية وقبولها للإنذار (كما كانوا يقدّرون بأنفسهم): «برأي مخبر جدي أنه في حال تطويق قواتنا للقرية وتقديم مهلة ووعد بمعاملة حسنة للسكان مع طلب تسليم السلاح – فسيستسلم معظم سكان القرية (يجدر أن نفحص مدى المصلحة التي تعود علينا من إبقاء السكان في مكانهم)»[٤٢].

كما تبين لنا أعلاه، من موقعين في الوثيقة، سواء في الفصل الثاني المسمى «القرية أثناء تطور الاحداث»، أو الخامس، المعنون بـ «التطورات المحتملة في حال الهجوم على القرية»، ومكرس بكامله لخيار الاستسلام، فإن كتاب الوثيقة يثيرون فرضية احتمال استسلام معظم سكان القرية بشروط معينة، لكن في نهاية الوثيقة فقط، وفي الجملة الأخيرة منها الواردة بين قوسين، أمكننا أن نفهم من بين السطور أنه لا ثقة بأن استسلام وبقاء السكان في المكان تتفق مع رغبة الوسط السياسي.

وصل مردخاي سوكولر، المولود في أوكرانيا، والذي كان في الثالثة والثمانين من عمره لدى لقائي به، إلى البلاد وهو في العشرين من عمره، في سنة ١٩٣٤، ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا وهو يقطن في زخرون يعقوب وعضو في «الهجناه». عمل سوكولر سنوات طويلة في حراسة الحقول، كما كان الحال معه في تلك الفترة، واستنفر للمساعدة في العملية كدليل، وأُلحق بكتيبة أ، التي هاجمت الطنطورة من ناحية الشمال، ومما جاء في شهادته: «عندما غادرنا في بداية المساء (حوالي الثامنة) من كفار يونا باتجاه شفياه، قيل لنا أن علينا التواجد كل في مكانه في الثانية فجراً، عندها، وبعد أن تكون القرية مطوَقة من كافة جوانبها، كان من المقرر أن تدخل المركبات العسكرية وتطلب من السكان تسليم السلاح. لكننا لم نصل لأننا علقنا في المستنقعات، وجوبهنا بحراس الطنطورة الذين أطلقوا علينا النار وبذلك تشوش التخطيط المسبق وكذلك فقدنا ميزة المباغتة»[٤٣].

في مقابلة إضافية أجراها المؤلف مع سوكولر، أكد بوضوح أن ما تسبب بفقدان ميزة المفاجأة في هجوم المسلحين اليهود كان «الصدام المسبق الذي وقع في الدفله، في القطاع الجنوبي، بعد منتصف الليل بنصف ساعة تقريباً، عندما قتل هناك مرة واحدة اربعة عشر شخصا، لأن تشبي وسمسونوف أصرا على أن يكونا مرشدي كتيبة جيم، مع أنهما لم يعرفا مثلي المنطقة الواَقعة إلى الجنوب من القرية»[٤٤].

وحقيقة أن سوكولر مقتنع بعد مرور ٤٩ عاماً على المعركة أن كافة قتلى معركة الطنطورة سقطوا في القطاع الجنوبي، فيها ما يثير أفكاراً معينة حول صدقية تفاصيل إضافية من المفروض

أن يكون وحده العالم بها.

وقد أدلى سوكولر بأقوال مشابهة في مقابلة أجرتها معه الصحيفة المحلية في زخرون يعقوب، «چيفن»، حيث اضاف: «في الساعة الرابعة فجراً كانت مجموعتنا الأولى في الموقع. أعلن القائد بمكبر الصوت أننا في الداخل. الكثيرون هربوا عبر البحر بالقوارب. لم نمنعهم، لكننا منعناهم من الوصول الينا»[٤٥].

هذه الأقوال عن الصدام المسبق تتناقض نسبياً مع وثيقة أخرى مأخوذة هي الأخرى من الأرشيف العسكري، تحمل العنوان: «تقرير عن عملية الميناء»، ومكتوبة بخط يد نائب قائد الكتيبة (أ) في العملية، يعقوب بلحوڤيتس («إيرز»، لاحقاً) الذي كان يعمل لدى إجراء التحقيق محاسباً لجمعية «الكسندروني»، وقد كان الإنسان الوحيد الذي رفض التحدث في نطاق هذا البحث، مدعيا وجود «توجه مسبق» لدى المؤلف. وهنا نتساءل: هل من الممكن أن يكون هناك أسباب أخرى وراء رفضه التحدث إلينا؟ هل ممكن أن لديه ما يخفيه؟ لا أعرف!

يستدل من التقرير عن العملية المكتوب بخط يد بلحوڤيتس، أنه حتى الثالثة والثلث فجراً على الأقل وربما بعد ذلك بقليل، لم تجر في قطاع الفرقة (أ) اية أعمال إطلاق نار، وفقط في الثالثة وأربعين دقيقة ابتدأ الهجوم باتجاه تلة «البرج». هناك أهمية حاسمة للوقت المضبوط لشن الهجوم، في سياق بحثنا في السؤال: هل كانت حقاً هناك نية حقيقية لإخضاع القرية من دون قتال؟[٤٦]

في لقاء سنوي لـ «أصدقاء مصنع الزجاج» جرى قبل سنوات في «نحشوليم»:، بمشاركة مقاتلي «الكسندروني»، قال بنتس فريدان، قائد كتيبة ٣٣: «انكشفت فرقة (ب) في مرحلة مبكرة وتلقت صليات نارية؛ فرقة (أ) تقدمت واصطدمت بعدد من السقائف الخاصة بالبدو الذين استيقظوا على نباح الكلاب ففتحنا النيران عليهم»[٤٧].

وعن نفس القضية – في الجبهة الجنوبية لفرقة (أ) استمعت من يحيئيل بريسل، قائد في إحدى شعب فرقة (ج) (مولود في ١٩٢٦، في البلاد من العام ١٩٣٣). قال بريسل: «تقدمت فرقتنا من الجنوب إلى الشمال، على امتداد شاطىء البحر. انكشفنا أمام العدو بعد نزولنا من السيارة بوقت قصير، ففتحت النيران علينا على الفور وبدأت معركة بالرصاص استمرت حتى الصباح»[٤٨].

بموجب ما ذكر في كتاب «الكسندروني»، فإن الفرق الثلاث انكشفت مبكراً مما أدى إلى اطلاق النار مبكراً: «على بعد معين من مرتفع البرج انتشرت عدة سقائف وخيام، يقول قائد فرقة (أ) إن سكانها أحسوا بنا وبدأوا بالهرب. أوقفت الفرقة وأرسلت مجموعة للأمام. اقتربتْ من الخيام وفتحت النيران، متسببة بهروب من تبقى من سكانها. في تلك الساعة تلقينا الرصاصات الأولى من جهة البرج. يبدو أن اطلاق النار على الخيام كان إنذاراً للعدو ومنحه مهلة لتنظيم صفوفه وفتح النار علينا. كذلك بدأت فرقة (ج)، التي تقدمت من جنوبي القرية، معركة اطلاق نار قبل أن تدخل مجال القرية ذاتها. تحركت الفرقة ببطء بين الكثبان الرملية، يخشى أفرادها عنصر المباغتة، الذي ينتظرهم خلف كل مرتفع رملي. قرب القرية فتحت عليهم النيران. أصيب اثنان.

وتوقف تقدم الفرقة، التي خاضت معركة اطلاق نار من مواقعها... أما فرقة (ب)، فانكشفت بعيداً عن القرية، وفتحت عليها النيران»[٤٩].

إضافة إلى ما تقدم، فإننا واجدون في متحف «مصنع الزجاج» في كيبوتس «نحشوليم»، معطيات مركزة ومختلفة متعلقة بالطنطورة، وقد جاء في ملخصها الذي كتبه يعقوب أفشطاين: «يقول يعقوب أفشطاين في مذكراته إننا حاولنا التحادث مع عرب الطنطورة قبل المعركة، لإقناعهم بالاستسلام، كما فعل عرب الفريديس؛ يتذكر يانكو أنه وعدهم بأنه لن يلحق بهم أي سوء وأنه بإمكانهم البقاء في مواقعهم وعلى أرضهم شرط أن يبعدوا كافة الغرباء عن قريتهم، بعد أن حولوها إلى قاعدة هاجموا منها المواصلات العبرية. لكن الأمر لم يتيسر لنا وكما هو معروف فقد دفعنا ثمناً باهظاً في المعركة على احتلال المكان»[٥٠].

بخصوص ما ورد عن «مهاجمة المواصلات العبرية»، يجدر التنويه إلى أن أحداً ممن قابلتهم في نطاق هذا البحث من اليهود والعرب لم يشر، ولو بالتلميح، إلى أي نوع من العدوان من جانب الطنطورة على «المواصلات العبرية»، كذلك لم نعثر على أية وثيقة أخرى تشير إلى ذلك. وهناك تساؤل إضافي مختلف يثور في اعقاب قراءة تقرير يعقوب بلحوڤتس، نائب القائد، وهو: لماذا لم يكتب قائد الفرقة بلتيئيل سفياتيتسكي (شڤيط) بنفسه التقرير؟ بما أن بلحوڤتس يرفض التحدث إلينا وسفياتيتسكي متوفى منذ سنوات، فمن الصعب اليوم فحص الموضوع. وهناك شهادات من كثيرين حول تفشي ظاهرة أخذ الغنائم، وما فعله «شڤيط» لوضع حد لها بطريقته[٥١].

وهناك بند في تقرير بلحوڤتس يتحدث عن تدفق كثيرين من سكان زخرون يعقوب إلى الطنطورة لنهب الغنائم بعد احتلال القرية، التي كانت – كما هو معروف – غنية على وجه الخصوص [٥٢].

في ملف ١٣، إرسالية ٦٦٤٧/٤٩ من الأرشيف العسكري، نعثر على تركيز لعدد من الوثائق، مثل: أوامر تنفيذ عملية الطنطورة، الموجهة منها إلى «الكسندروني» أو إلى قائد فرقة (أ) في الكتيبة المتنقلة التابعة للواء «كرميلي»، وتقرير بلحوڤتس، الذي بحثنا فيه من قبل، وتقرير آخر لنائب القائد نحمن كرني، وخريطة بخطة العملية، وتقرير ضابط العملية عنها، وتقرير إضافي عن «سير عملية الميناء»، وهو غير موقّع، لكنه تسجيل لمعظم البلاغات التي تم بثها باللاسلكي أو التقاطها به خلال العملية. ولدى قراءة كافة هذه التقارير نسأل: أين تقرير فرقة (ج)؟ هل يوجد تقرير كهذا لدى مصدر آخر، أم أنه لم يكتب بالمرة، وإذا كان كذلك – فلماذا؟ لا نملك إجابات على هذه الأسئلة، باستثناء الحقيقة الأساسية وهي أن تقرير فرقة (ج) لم ينوجد في الملف.

هناك وثيقة أخرى لا تحمل تاريخ كتابتها وإن ورد فيها تاريخ أولي معين. تظهر الوثيقة تحت عنوان «صُرّة معلومات»، وهناك عنوان ثانوي: «تفاصيل عن قرية الطنطورة»، وفيها تقارير صادرة عن «شاي»، مستمدة من التحقيق مع ثلاثة أسرى من الطنطورة، ألقي القبض عليهم بالقرب من الفريديس يوم ١٤/٥/١٩٤٨، قبل العملية بحوالي ثمانية أيام[٥٣].

في البند الأول تعالج الوثيقة موضوع «المواقع وترتيبات الحراسة»: «يحرس في اليوم حوالي أربعين مسلحاً، بعضهم في المواقع وبعضهم متنقل. منظم الحراسة هو محمد يونس الهندي، الذي كان سيرجنت في شرطة الخضيرة. معظم الحراس يتجمعون قبل خروجهم (مع غروب الشمس) في المقهى الموجود قبالة المسجد ومنه يتوزعون على مواقعهم: تتبدل الحراسة بين الساعات ٢٣ ، ٢٣,٣٠. يملكون ثلاث راجمات...» .

وفيما يخص مواقع الدفاع عن القرية:

«من الشرق:

١) بناية المدرسة، التي تعتبر موقعاً مركزياً ومهماً يشرف على المنطقة كلها. في الموقع يوجد رشاش برن.

٢) موقع أكياس رملية فوق بيت محمد حسان.

٣) موقع أكياس موجه نحو الشرق، فوق برج الماء في البلد.

٤) في المدخل الرئيسي إلى القرية هناك حاجز (البيت) وموقع أكياس رملية.

الجنوب:

١) قرب البيدر.

٢) كيلومتر واحد إلى الشرق من البيدر.

٣) ١٠٠ متر إلى الشرق من شاطىء البحر.

شمال:

١) يوجد موقع واحد فقط شمال غرب المصنع القديم للزجاج. يصل ارتفاع مواقع الأكياس الرملية حوالي ٣٠ سم عن وجه الأرض. في كل موقع ٣ – ٤ مسلحين»[٥٤].

(هذه المعلومات المفصلة عن عدد المواقع وعدد الحراس في كل موقع تؤكد أقوال فوزي محمد أحمد طنجه («أبو خالد»)، الذي كان أحد الحراس في الطنطورة في ليل احتلال القرية).

«المجموع:

١ برنّ، حوالي ٣٦ بارودة، ٤ رشاشات، ٣ مسدسات، كمية من الذخيرة وكمية من المواد المتفجرةَ»[٥٥].

في البند (ب) من الوثيقة تظهر قائمة من أربعة اسماء لمن يصفهم الكاتب بأنهم «ناشطون في القرية».

أما البند (ج) في الوثيقة التي أمامنا فجدير باهتمام خاص، وفيه يقول الكاتب تحت عنوان «متفرقات»:

«عدد السكان في القرية اليوم يتراوح بين ٣٠٠ – ٤٠٠ نسمة. هرب حوالي ألف نسمة مع الوقت بطريق البحر إلى صور. جاءت سفينة خاصة أربع مرات إلى القرية وأخذت أعداداً من السكان».

في ضوء هذه المعطيات الواردة من بقية الوثائق يصبح فهم هذه الفقرة أمراً عسيراً، فنحن لا نملك أي تفسير مقنع لهذه الأرقام، الاّ إذا أخذنا بالحسبان أنها معلومات مستقاة من التحقيق مع

الأسرى، ولعلهم قصدوا نوعاً من التضليل في أقوالهم. وفي ما يخص المعطيات الواردة في هذا البند، لا بد من القول إنه بقدر ما أمكننا فحص الأمر، وباستثناء الخبر المنشور في «معريف» من يوم ٢٦/٥/١٩٤٨، فإنها الوثيقة الوحيدة التي تتحدث عن خروج العرب، وبهذا الحجم، من قرية الطنطورة، قبل أن يبدأ القتال، في وقت نعرف فيه أن الهجوم على القرية جرى في ليل ٢٢ – ٢٣ أيار، وقد كان مفاجئاً تماماً لأهل القرية، وانتهى بمئات كثيرة من الأسرى بعد الاحتلال.

تجدر الإشارة هنا إلى أننا نعثر على النقيض التام لهذا المقطع من الوثيقة، الذي يحدد أن «عدد السكان في القرية اليوم يتراوح بين ٣٠٠ – ٤٠٠ نسمة»، في «تقرير عن عملية الميناء»، لنائب القائد بلحوڤيتس.

وقد ورد في الفقرة قبل الاخيرة من الوثيقة، تحت عنوان «خسائر»، أنه عدا عن قتيل واحد وجريح واحد في رجله، أُخذ في نهاية المعركة «من الاسرى: ٣٥٠ رجلاً (معظمهم من حملة السلاح) وعدة مئات من النساء والأولاد»[٥٦].

وهناك شيء آخر ما زال غامضاً: عندما نجد أن اشخاصاً كثيرين يدعون في شهاداتهم أن أعداداً كبيرة من سكان الطنطورة هربت من القرية في ليل المعركة، سواء بقوارب الصيد وغيرها، أو عبر المسالك الترابية المختلفة، قاصدة قرى «المثلث الصغير» لجهة شمال – شرق، وفي اتجاه الفريديس في الشرق؛ وفي ضوء الشهادات عن عدد القتلى في القرية (بين ٢٠٠ – ٢٥٠) أثناء المعركة أو بعدها، ومن خلال علمنا أن الرقم الكلي لسكان القرية وصل بين ١٥٠٠ – ١٦٠٠ نسمة، فمن المعقول جداً – بحساب حد أدنى بسيط – أن ما لا يقل عن ٢٠٠ – ١٤٠٠ نسمة، وربما أكثر، تواجدوا في ليلة المعركة في الطنطورة؛ وهذا العدد يظل أكثر بكثير من الرقم ٣٠٠ – ٤٠٠، الذي يظهر في الوثيقة الخاصة بالتحقيق مع الأسرى المحتجزين منذ ١٢/٥/١٩٤٨.

في كتابه «من زمّرين إلى زخرون يعقوب» يكتب شاؤول دغان مدير أرشيف زخرون يعقوب التاريخي:

«في جلسة لجنة الموشاڤاه من يوم ٢٣ يونيو ١٩٤٨... يخبر رئيس اللجنة آبا شختر أصدقاءه بأمر نقل ٤٠٠ أسير وحوالي ١٦٠٠ رجل من كبار السن، والنساء والصغار إلى الفريديس المجاورة»[٥٧].

يخيل أن هذه الارقام الأخيرة، التي يقدمها شاؤول دغان نقلاً عن كتاب بروتوكولات لجنة «الموشاڤاه» في زخرون يعقوب، وإن لم تكن مضبوطة تماماً، تنطق عن نفسها، في كل ما يخص عدد النفوس التي كانت في الطنطورة – رجالاً ونساء وعجزة وصغاراً ـ في ليل الهجوم على القرية.

من شأن ما جاء في تتمة وثيقة «التحقيق مع الأسرى» – (التي تخبرنا أنه «في يوم ١٢/٤/١٩٤٨ وصلت سفينة شراعية مع محرك وجلبت حوالي ٤ – ٥ صناديق ذخيرة، كانت مخصصة لقرية مجاورة (عين غزال؟ الطيرة؟). وهي نفس السفينة التي سبق أن جاءت ٣ مرات قبل ذلك، وأخذت لاجئين. السفينة تسافر في طريق عودتها إلى صور») – أن يثبت، بصورة قاطعة، الإدعاء الأساسي والمركزي للجانب اليهودي تجاه العملية في الطنطورة والذريعة لاحتلال القرية تزويد

قرى «المثلث الصغير» بالمعدات والسلاح والذخيرة، بعد أن كانت مصدر تغذية حيوياً لمواصلة المعركة الفلسطينية ضد المواصلات في شارع حيفا – تل أبيب.

وفي تتمة المعلومة من الوثيقة أعلاه، عن «سفينة شراعية مع محرك وجلبت حوالي ٤ – ٥ صناديق ذخيرة» (لعله «لنش» الجنود السوريين من شهادة «أبو محمد»)، يشير الكاتب أيضاً إلى أنه «توجد في القرية حوالي ٦ – ٨ قوارب شراعية صغيرة» يستخدمها الصيادون وهي بدون محرك. هذه الأرقام تنقض «القوارب العشرة التي تنقل الذخيرة والمعدات واللاجئين»، المذكورة في وثيقة ١٠/٥/١٩٤٨.

وفي صفحة أخرى عائدة ليعقوب أفشطاين هي الأخرى، نجده يتوسع في الحديث عن علاقات الجيرة الحسنة بين اليهود والعرب في الفترة التي سبقت الحرب، وكتب بنوع من التفصيل:

«تعامل العرب بصورة حسنة مع العائلات اليهودية (القصد عائلة مردخاي بونشطاين مؤسس «سلالة بونشطاين» ومن كان يلقب لدى الجميع بـ «موسى الطنطورة»، وكذلك عائلة شقيقه اسحاق). سكنوا في البلد حتى بلغ ابناؤهم سن التعليم. (وهو ما شهدت به أيضاً پنينه سندلار من بيت بونشطاين)»[٥٨].

«مثال على العلاقات الحسنة: في الحصاد المشترك للغلال في القرية تم التوصل إلى ترتيب لا تحصد فيه غلال اليهود في السبت، حتى أنه عُرض على مردخاي أن يكون مختار الطنطورة!».

وعموماً: كانت هناك علاقات جيدة بين أهل الطنطورة وسكان زخرون يعقوب استمرت سنوات طويلة. كانت الطنطورة ملتقى لسكان زخرون الذين كانوا يأتون إليها في الصيف ويستأجرون الغرف ويمكثون مع فائق الاحترام. طرأ التدهور في فترة الانتداب البريطاني. كانت لدى البريطانيين كما هو معروف سياسة «فرّق تسُد». أراد أفراد العصابات الدخول إلى جميع القرى. كان يعقوب متصلاً بكافة مراحل الأحداث أثناء حرب التحرير، فقد كان مسؤولاً عن الحراسة في المنطقة وربطته علاقات جيدة مع جميع سكانها. أخذ على عاتقه اقناع عرب الطنطورة والفريديس بعدم الهرب. وصل أولاً إلى الفريديس داخل مصفحة ومكبر صوت ونجح بإقناعهم. كان الوضع في الطنطورة معقداً، لذلك استدعي الكبار للقاء سري في وادي «الدفله»[٥٩].

سمع داهود الحاج هندي وعدد من الوجهاء بعرض يعقوب، لكنهم طلبوا منه «عدم ذكر أمر اللقاء لأن من يسيطر في القرية هم الشباب والعراقيون. تم تحذيرهم من عدم المساس بالمواصلات اليهودية لكن الاعتداءات تواصلت»[٦٠].

تجدر الإشارة إلى أننا لم نعثر في أي مكان على أية شهادة عن «الاعتداء على المواصلات اليهودية من جانب الطنطورة». بعد ذلك، وفي الفقرة التي تحمل عنوان احتلال الطنطورة، يقول الكاتب: « بعد المعركة، في الليلة التي سقط فيها ٧٥ عربياً (بمن فيهم امرطأتان) وجد يعقوب في الصباح جميع النساء والأولاد جالسين على شاطىء البحر؛ لم يبق من الرجال أحد – فقد أُخذوا أسرى أو هربوا (والعراقيون هربوا أيضاً) – كان هناك حوالي ١٥٠٠ نسمة. تنقل يعقوب بينهم للتأكد من عدم وجود غرباء، لكنهم كانوا جميعاً من سكان الطنطورة، فعرض عليهم نقلهم إلى الفريديس؛ وبالفعل أُحضرت شاحنات ونقلت العائلات وتم توزيعها على عائلات

الفريديس»[٦١].

وعن ذلك يكتب شاول دغان:

يحكي يعقوب أفشطاين في مذكراته عن محاولته التحادث مع عرب الطنطورة قبل المعركة، لإقناعهم بالاستسلام، كما فعل عرب قرية الفريديس. «وعدناهم» – يتذكر «يانكو» – «بأنه لن يلحقهم أي سوء، وبأنهم يستطيعون البقاء في بيوتهم وعلى أرضهم، شرط أن يبعدوا عن قريتهم جميع الغرباء الذين حولوا الطنطورة إلى قاعدة هوجمت منها المواصلات العبرية» (وهنا نقف امام مقولة عامة حول «مهاجمة المواصلات العبرية» لا تربطها أية صلة مباشرة بالطنطورة، سوى كون الطنطورة ميناء متاحاً لتلقي المؤن والذخيرة والمعدات والسلاح)[٦٢].

«لكن الأمر لم يتيسر، وكما هو معروف فقد دفعنا ثمناً باهظاً في المعركة على احتلال المكان. لكنه طلب من سكان زخرون يعقوب بعد ذلك أيضاً مساعدة القوات اليهودية في إخلاء السكان القرويين. تقرر آنذاك نقل العجزة والنساء والأولاد لقرية الفريديس، حتى يتقرر مصيرهم. بذل سكان زخرون قصارى جهدهم للتخفيف من معاناة المهجرين، لكنهم لم يتمكنوا من عمل الكثير»[٦٣].

بأيدينا شهادة إضافية من أهرون بن مردخاي أفشطاين، في مقابلة من العام ١٩٨٦، بينما كان في الخامسة والثمانين من العمر: «قبل احتلال الطنطورة طلبت مني «الهجناه» الذهاب وتحذير السكان من الهجوم المرتقب. أبلغني العرب أنه لا يجدر بي المجيء. جاء أحمد الحاج إلى منتصف الطريق للتفاوض وأبلغني أن الأمر لم يعد بأيديهم وأن قسماً من السكان هربوا عن طريق البحر. بعد الإحتلال تم تجميع كافة الناس في المقبرة (لعل المقصود هنا هم الرجال فقط) وبموجب إشارة مني إلى المواطن الاصلي من الغريب، قاموا بتصفية جميع أفراد العصابات»[٦٤].

تجدر الإشارة إلى أنه قد ينشأ هناك تناقض ما بين شهادتي أفشطاين وبونشطاين، ومع أن الاثنين لم يعودا بين الأحياء، تظل هناك أهمية للإشارة إلى هذا التناقض:

جاء في أقوال أفشطاين المقبوسة من الورقة ذات العنوان «يعقوب أفشطاين يتذكر» أنه بحث لدى قدومه إلى شاطىء البحر في صبيحة اليوم التالي (بعد أن رحل الرجال، بموجب الوثيقة)، وسط جمهور من ١٥٠٠ امرأة وطفل، لكنه لم يعثر بينهم على غرباء[٦٥].

مقابل ذلك، ففي شهادة بونشطاين، يشهد أهرون بونشطاين على نفسه أنه اشار بيده نحو أهل الطنطورة من السكان أو الغرباء، وبموجب اشاراته تم «التعرف على أفراد العصابات وتصفيتهم». ومع أن قصة بونشطاين تجري صباحاً، لكنه يظل محتملاً أن يكون ذلك الأمر تم قبل وصول يعقوب أفشطاين للقرية، بينما يظل محتملا أيضاً أن يعقوب بونشطاين وصل إلى القرية مع القوات اليهودية، خلال الليل[٦٦].

في سياق حديثه يحكي أهرون بونشطاين، الذي أسماه أهل القرية «أهرون الطنطورة»، أنه «تم جلب أهل الطنطورة إلى الفريديس. من رغب بقي في الفريديس، والبقية أُخذت إلى الحجز». تناقض هذه الأقوال ما استمعت إليه من معظم بقية من قابلتهم لهذا البحث، يهود وعرباً، ممن يؤكدون أنه تم نقل الرجال إلى شرطة زخرون يعقوب ومنها إلى منشآت حجز أخرى لعدة

شهور وبعد ذلك – مباشرة إلى ما وراء الحدود، بينما تم جلب النساء والأولاد وكبار السن بالفعل إلى الفريديس.

وهناك مسألة أُخرى لا تقل غرابة: يحكي أهرون بونشطاين أن أحمد الحاج، الذي كان صاحب ضيعة كبيرة، طولب ببيع أرضه للدولة عن طريق أهرون، فرفض. ولأنه فعل ذلك أخذته السلطات وطردته إلى الاردن[٦٧].

توفي أهرون بونشطاين في عام ١٩٩٦ عن ٩٧ عاماً، لذلك لا يمكن سؤاله عن الظروف التي تمت فيها مفاوضة أحمد الحاج على بيع أرضه. وهل لكونه مختار الطنطورة الأخير لم يسجن مع بقية الرجال؟ وما دام أكبر من أن يستطيع الذهاب إلى السجن، فلماذا لم يطرد مع بقية سكان الطنطورة؟

عن دخول / وصول يعقوب أفشطاين إلى الطنطورة في صبيحة يوم الأحد ٢٣ / ٥ / ١٩٤٨، توجد بأيدينا روايات إضافية، تدل جميعها على أن أفشطاين إحدى الشخصيات المركزية في حكايتنا. وقد حدثني ابنه البكر، يوسي، أن والده حمل الكتب المقدسة من المسجد بعد احتلال القرية ونقلها على مسؤوليته الكاملة إلى مسجد الفريديس[٦٨]. وقد أشار العرب الذين قابلتهم من لاجئي الطنطورة – حوالي عشرين – إلى «يعقوب المختار» (أفشطاين) كمن أنقذهم من مذبحة مؤكدة، وهو ما سنعود اليه لاحقاً.

تدل شهادة ابنه يوسف، على أن يعقوب أفشطاين عمل في وساطة الاراضي، وكان على الدوام «مستشاراً للعرب»، وقد جاء في الرواية الرسمية للمعركة على الطنطورة أن «أهالي الطنطورة خرقوا اتفاقية مع يعقوب أفشطاين من زخرون يعقوب الذي حاول منعهم من التدخل، كما فعل عرب الفريديس»[٦٩].

(...)

ما الذي يمكن تعلمه من الوثائق التي تتحدث عن محاولات إخضاع الطنطورة بدون قتال؟ هل يعقل أن تشويشاً فقط في خطط العمل أدى إلى اندلاع المعركة؟

يمكن العثور على اجابة معينة في تلخيص وقائع جلسة مشتركة لضباط استخبارات وخبراء للشؤون العربية (ورد بينهم اسم عزرا دانين أيضاً) كانوا يعملون في منطقة الشارون[٧٠]. انتهت هذه الجلسة، المنعقدة في نتانيا يوم ٩ / ٥ / ١٩٤٨ لتحديد السياسة المنوي اتباعها تجاه بقية العرب في «الشارون»، بتوصية المشاركين فيها أمام الوسطين العسكري والسياسي (أي: قيادة «هجناه») بـ «إبعاد أو إخضاع» سكان قرى كفر سابا العربية، الطيرة، قاقون، قلنسوه والطنطورة، وكذلك بطرد سكان قرية فجه عند مداخل «پيتح تكفاه» (ملبّس).

وحقا، فقد أبقت توصية كهذه – يمكن الافتراض بأنها صيغت بالطبع بطريقة ازدواجية المعنى – القرار بيد الوسط العسكري المحلي، وهو قيادة لواء «الكسندروني» في هذه الحالة، الذي اتخذ من نتانيا مقراً له، في معسكر «دوره»[٧١].

عملياً، فإن هذه التعليمات توحي بأن القرار النهائي بشأن طريقة «إخضاع» أو «إبعاد» سكان القرى المذكورة كان سيتخذ في أرض الواقع، خلال القتال (بمستوى قادة كتائب أو فرق)، ويتبين

أيضاً أن ذلك ما حدث بالفعل، على الأقل في الحالة التي نبحث فيها – الطنطورة[٧٢]. تجدر الإشارة إلى أنه في حالة الطنطورة، وبموجب شهادات كثيرين ممن قابلتهم، لم تكن هناك تعليمات واضحة معينة بخصوص ما يجب عمله بالسكان المحليين في المراحل التي تلت المعركة، وقد نشأ في مرحلة معينة الانطباع – وهو ما حدث بالفعل في الطنطورة – بأن الأمر متروك للأحكام الفردية.

تدل الحكاية التالية عن غياب النهج وربما السياسة الصريحة أيضاً في مسألة أساسية كهذه (ماذا بخصوص سكان القرى المغلوبة، وكيف سيتم التصرف حيالهم: يحكي عزرا دانين في سيرته الذاتية «صهيوني بلا شرط» أن جاد ماخنس ويهوشع فلمون (وهما من كبار موظفي «شاي»؛ الأول من مؤسسي نتانيا) ودانين نفسه كُلِّفوا في مطلع ابريل ١٩٤٨ بـ«التنقل بين القرى العربية الموجودة في السهل الساحلي لمحاولة إقناع سكانها بعدم الخروج (حمل جاد ماخنس هذه التعليمات من رئيس القيادة القطرية للهجناه، يسرئيل جليلي). نفذنا هذه المهمة، التي استخدمنا فيها أيضاً مختار الخضيرة أهرون فرانك وعدداً من سكان زخرون يعقوب وعتليت. بعد استكمال المهمة قدمنا عنها تقريراً مفصلاً في الجلسة المنعقدة في حيفا بتاريخ ٢٣ ابريل بحضور داڤيد بن غوريون، الذي أصغى ولم يرد، لا بالإيجاب ولا بالسلب»[٧٣].

في نفس الفصل وعن نفس الموضوع، وفي سياق تلك الجلسة مع بن غوريون في حيفا، يكتب دانين: «بعد ذلك، ونحن نقف في شرفة الفندق، شاهدنا قافلة عرب متدفقة باتجاه الميناء. نشر آبا حوشي ورجاله ووزعوا منشورات تنادي عرب حيفا بالبقاء، بينما كان بن غوريون يخاطب الحضور قائلاً: كم عدد الباقين؟ إذا كانوا يريدون الذهاب، فلماذا تمنعونهم من ذلك؟ دعوهم يذهبوا! »[٧٤]. وهنا يقدم دانين نوعاً من «الاعتراف» الشخصي الصريح، الذي يؤسس فرضيتنا حول السياسة المنتهجة تجاه سكان القرى المغلوبة: «كانت تلك أول مرة أستمع فيها من قائد البيشوڤ، بأنه اذا كان العرب راغبين بالذهاب، يجب أن نمكنهم من ذلك، وذلك خلافاً لما استمعنا إليه حتى ذلك الحين من جاد ماخنس باسم رئيس القيادة القطرية للهجناه يسرئيل جليلي»[٧٥].

وفي نفس المقطع يواصل دانين في مسألة تهجير العرب ويتطرق إلى قرى «المثلث الصغير» أيضاً، وإن لم يشر إليها بالإسم: «ما حدث أنه بسبب ضعفنا العام بالذات تم إبعاد العرب عن قراهم. هكذا حدث مثلاً في قرى سفح الكرمل، المطلة على شارع تل ابيب – حيفا. كان عدد رجالنا محدوداً، وكمية السلاح قليلة، وعندما أخذوا يقنصون من هذه القرى سيارات اليهود المسافرة، وقفنا أمام خيارين: إما أن نوقف حركة السير، أو نبعد القناصة. في اللحظة التي دخلت فيها قواتنا القرى، وقعت جلبة كبيرة، تطورت إلى هروب عام»[٧٦].

سوف نتوسع في الحديث لاحقاً عن قضية قرى «المثلث الصغير»، لكن تجدر الإشارة إلى وجود مؤشرات وشهادات في الحالة الخاصة هذه حول «المثلث» تدل على أن ضائقة الناس والسلاح الكبيرة كانت متواجدة في الجانب الفلسطيني بالذات، وهي التي سببت، من جملة الأسباب، لسكان هذه القرى مغادرتها والرحيل عنها. وفي هذه الحالة المعينة فإن «الجلبة الكبيرة» و «الهروب العام» وقعا قبل وصول المسلحين اليهود إلى القرى. وسنحلل مجمل الدوافع

التي أدت إلى ذلك في الفصل المناسب. نتبين من هذه الأقوال أن أفراد المستوى التنفيذي لم يعلموا دائماً بماذا يفكر القادة عما يجب أن تكون السياسة أو حتى ما هي السياسة المتبعة. ولعل القادة أنفسهم أيضاً لم يعرفوا دائماً ما هي الاتجاهات المرغوب بها عموماً، وفي كل حالة وحالة، وكثيراً ما تصرفوا بنوع من التجريب، والحيرة في ما بعد. وفقط بموجب الظروف والمعارك المتلاحقة الواحدة بعد الأخرى، توصلوا إلى استنتاجاتهم الخاصة. وقد تحدث كثير من اليهود الذين قابلتهم في إطار هذا البحث ممن كانوا جنوداً في العام ١٩٤٨ عن سلسلة من المعارك التي تلاحقت من أسبوع لآخر، وفي كل يوم أحياناً. وكان لدى بعضهم تحفظات من أن إدارة الحرب قامت، بلا مناص، على ارتجالات كثيرة وحلول غير مناسبة للمشاكل الكثيرة التي ثارت، منوهين بشكل خاص بالضغط النفسي والجسدي الكبير الذي فرضته المخاطر التي تتهدد المشروع الإستيطاني كله من الجانب الفلسطيني. وأشار كثيرون إلى أحداث ٣٦ – ١٩٣٩، وحتى اضطرابات السنوات التي سبقتها، مؤكدين أنهم خرجوا للقتال بإحساس عميق بأن طرفاً واحداً منهما سيكون المنتصر، وهو من سيبقى على قيد الحياة. ولعلنا نجد في هذه الأقوال ما يفسر، ولو جزئياً، سلوك قسم من المسلحين اليهود في ساحة القتال. ولعل أبرز عامل مؤثر في سلوك الذين تراوحت أعمارهم بين ١٧ – ٢٥ ما لحق بهم من إصابات وخسائر بشرية جراء معارك ضارية بموجب كل المقاييس[٧٧]. ولم يكن بالإمكان استخلاص أية نتائج خارقة حول أحداث الطنطورة من عدد من البرقيات المحفوظة في الأرشيف العسكري من يوم ٢٣ / ٥ / ١٩٤٨، والتي أرسلها «الكس» إلى يدين على فترات مختلفة[٧٨].

أرسلت البرقية الأولى يوم ٢٣ / ٥ / ٤٨ الساعة الواحدة ظهراً: «مرت العملية بنجاح. أخذنا مئات الأسرى وغنائم محددة. لدينا خسائر محددة». لم تشر هذه البرقية بصراحة إلى أن القصد هو الطنطورة، لكن عنونتها بـ «الجبهة الشرقية»، وصدورها عن «الكس»، لا يتركان مجالاً كبيراً للشك في ذلك. وعلى نفس الصفحة، بفارق ثلاثة بلاغات، وصل البث التالي: «بعد مقاومة عنيفة احتلت الطنطورة. منينا بخسائر. تفاصيل أخرى تتبع»[٧٩]. بروح هاتين البرقيتين، واعتماداً عليهما في ما يبدو، كتب بن غوريون في يومياته من ٢٤ / ٥ / ١٩٤٨ الكلمات القليلة التالية: «عملية الكسندروني في الطنطورة نجحت. احتلت القرية. أخذوا أسرى وأسلحة»[٨٠].

يبدو أن بيني موريس، الذي يصف بتوسع نسبي المعركة الأخيرة على الطنطورة، في ليل ٢٢ – ٢٣ ايار ١٩٤٨، يستمد معظم معلوماته في هذه الحالة من كتاب غرشون ريڤلين وصفي سيناي «لواء الكسندروني في حرب التحرير»، ومن تسجيلات عسكرية رسمية كشفت أمامه[٨١]. وهناك برقية أخرى من «كرميلي» وصلت نفس اليوم الساعة الرابعة بعد الظهر، تصف دور اللواء المذكور في العملية ضد الطنطورة[٨٢]. تقول البرقية: «هوجمت مجموعة تابعة لكتيبة متحركة كانت تتصدى لمنع وصول تعزيزات إلى الطنطورة، وتم تطويقها. لعلها هوجمت من جهة جبع وعين غزال... وأجبرت على الإنسحاب مع عدد من الجرحى، ومفقود واحد.». وهناك وثيقة أخرى عن عملية «كرميلي» هذه، تحت عنوان «إغلاق الطريق في المعركة على الطنطورة»، تحمل وصفاً لتسلسل الأحداث في تلك الليلة (٢٢ / ٥)، كتبه قائد المجموعة أمنون لين، يدل على

أنه بينما استكمل «الكسندروني» احتلال الطنطورة، وجوبهت بالمصاعب عملية قطع الطريق من الشمال التي استهدفت منع وصول التعزيزات من جهة عين غزال وجبع، نتيجة استعدادات اللحظة الأخيرة، وانعدام الأسلحة الصالحة. وفي محادثة لي مع قائد المجموعة أمنون لين، استرجع أمامي ذلك الصراع الذي وقف أمامه: هل ينسحب ويعود سالماً قبل الفجر، بموجب الأمر الذي يحمله، أم يمنع بكل ثمن عرب جبع وعين غزال من الوصول إلى الطنطورة في مرحلة من المراحل؟ يقول أن أهل الطنطورة تميزوا بامتلاكهم أربع ماكينات اطلاق نار من نوع «هوتشكس»، كانت تطلق لمسافات بعيدة، وتصيب إصابات قاتلة لم تترك أية فرصة للمسلحين اليهود للتغلب على مهاجميهم العرب[٨٣].

ويقتبس بيني موريس من أقوال «مؤرخ الفرقة»: «ليس واضحاً ما إذا كانت قد صدرت الأوامر إلى سكان القرية بالمغادرة، أم أنهم عوملوا بنوع من «اللين»، كأن يكونوا قد اكتفوا بالتوصية أمامهم بأن يفعلوا. مهما يكن من أمر، لا شك أن قادة المجموعة كانوا معنيين بتفريغ القرية، وواضح أيضاً أن قسماً من السكان على الأقل قد طرد"[٨٤]. كما أسلفنا، فإن قصة العملية في كتاب اللواء، وكذلك التفاصيل التي أوردها بيني موريس، المعتمدة على التوثيق الموجود خطياً في الأرشيفات المختلفة، لا تترك مجالاً للإنطباع بأن الطنطورة شهدت حقاً أحداثاً استثنائية[٨٥]. ولا يقل عن ذلك غرابة أنه لم يرد أي تلميح لوجود عمليات استثنائية أو شاذة في عدد من المصادر العربية، مثل «بلادنا فلسطين» أو «الموسوعة الفلسطينية»، أو في قصة الخالدي All That Remains الصادرة بالانجليزية في واشنطن.

مع ذلك، فهناك أربع مطبوعات باللغة العربية – اثنتان بالتفصيل، نسبياً، واثنتان بالتلميح فقط – تتحدث عن أحداث شاذة وقعت في الطنطورة. هكذا فعلت صحيفة «كل العرب» الأسبوعية الصادرة في الناصرة في ما نشرته على مرحلتين تفصل بينهما سنوات عن ذلك، إضافة إلى تلميحات قصيرة وردت في كتابين سنتطرق إليهما لاحقاً. أما بخصوص التحقيقين الصحفيين، فالأول تحقيق مفصل بعنوان «الطنطورة: المذبحة والتاريخ»، نشرته «كل العرب» على قسمين، يورد فيه كاتبه محمد حسني نجيب، ولأول مرة، تفاصيل مكتوبة عن الأحداث في الطنطورة وقت احتلالها، كما قدمها أشخاص مختلفون من لاجئي القرية[٨٦]. يبحث القسم الأول من التقرير في تاريخ القرية، أما القسم الثاني فيتحدث كما يقول كاتبه عن تفاصيل المذبحة التي نفذت بحق السكان، كما استمع إليه من «القلائل الباقين على قيد الحياة، في اسرائيل والمناطق المحتلة». وهكذا يكتب في تقريره، على لسان فوزي الطنجه، أحد المقاتلين: «مع اشتداد القتال في فلسطين أرسلت الهيئة العربية العليا في سوريه قوارب إلى ميناء الطنطورة، لكي تخلي السكان من هناك عن طريقه، وهو ما أدى إلى انقسام بين الناس، لأنهم رفضوا مغادرة قريتهم بل فتحوا النار على عدد ممن صعد إلى القوارب. غادرت القوارب ميناء الطنطورة بعدد قليل من الأشخاص، بعد أن خاطب أبو الصادق من عائلة ماضي أصحاب القوارب وأهل الطنطورة قائلاً: سندافع عن الطنطورة حتى لو اضطررنا لأن نفعل ذلك بأجسادنا...

«في تلك الفترة سمع أهل الطنطورة عن احتلال حيفا وعن هرب قسم كبير من سكانها لذلك

قرروا الدفاع عن كرامتهم وأرضهم وبدأوا يستعدون لحرب بين قوات غير متكافئة، دفاعاً عن التاريخ الذي صنعوه بأنفسهم، وبعرق جبينهم (...). بتاريخ ٢٢ / ٥ /١٩٤٨ هوجمت الطنطورة من كافة الاتجاهات لتبدأ المعركة بالضبط في الساعة العاشرة والنصف (...) إلا أن المدافعين عن القرية لم ينجحوا بالصمود طويلاً نتيجة نقص الأسلحة والذخيرة (...) وفي منتصف الليل بالضبط اقتحمت القوات اليهودية القرية التي تحولت إلى ساحة قتال وحرب شوارع، حتى سقوط آخر المقاتلين (...) بعد ذلك جمعوا كافة الرجال قرب شاطىء البحر، وبالصدفة نجحوا أثناء التفتيش في الوصول إلى ورقة حراسة تضم اسماء الشباب الذين دافعوا عن القرية. جمعوا أصحاب الأسماء كلهم ورموهم بالرصاص وهم عزل ووجوههم إلى الحائط، في عملية التصفية هذه شارك كل من مشولام وموطي ويعقوب المختار وجميعهم من زخرون يعقوب».

لا نعرف ما هو مصدر هذه المقولة المنسوبة إلى فوزي الطنجه حول مشاركة مشولام وموطي ويعقوب المختار في القتل المذكور، إذ أنها الشهادة الوحيدة بخصوص يعقوب أفشطاين على الأقل التي تضعه في جانب منفذي القتل وذلك غريب جداً، لأن بقية الشهادات تصفه بـ «منقذ» أهل الطنطورة الكبير من مذبحة جماعية أكبر.

وخلافاً لما قيل في تقرير «كل العرب» أعلاه، قال فوزي الطنجه (أبو خالد) في مقابلة معي: «بعدها أخذوا البقية إلى المقبرة، أوقفونا هناك واعتزموا اطلاق النار وتصفيتنا جميعاً، وفي هذه المسألة برز واحد يدعى شمشون، الذي لم يطلق كثيراً بنفسه، لكنه اعطى تعليمات في كافة الاتجاهات وأشرف على القتل بـ «نشاط» متزايد. إلا أنه في تلك اللحظة وصل ٥٠ – ٦٠ شخصاً من زخرون يعقوب وتدخل عدد من قيادييهم وأوقفوا استمرار المذبحة، قائلين: كفى إلى هنا! لا يمكنني الإدلاء بأسماء أهل زخرون لأنني لم أعرفهم، فقد كنت معظم الوقت في حيفا، أعمل لدى البريطانيين».

في ذلك اللقاء أثار أبو خالد ذكرى أخرى يحتفظ بها منذ يوم احتلال القرية: «بينما كان الجنود يبحثون عن السلاح سرت معهم باتجاه بيتي، لكي يفتشوه. عندما وصلته وجدنا الباب مقفلاً والدم يسيل فوق العتبة. فكرت للوهلة الأولى أنهم اطلقوا على أمي التي بقيت في البيت وقتلوها لا سمح الله؛ بعد أن اقتحموا الباب اتضح أنه كلبي. كيف ولماذا فعلوا ذلك – لا أدري؟!».

وعودة إلى تقرير محمد حسني نجيب: «حدثتني إحدى الشاهدات أن كل شاب أمسكوه حاملاً السلاح أخذوه إلى الحائط وأطلقوا النار عليه من الخلف. تقول الشاهدة إنها شاهدت بأم عينها في شارع أم فخرية زوجة نمر الربيدي عشرات الشباب ووجوههم إلى الأرض، لأنهم أطلقوا عليهم احياء. سمعت صوت الرصاص وأنا في الشاحنة التي أخذتنا إلى خارج الطنطورة، أيضاً. يا ستي كانت مذبحة. الله لا يعيد هذيك الأيام!».

«مما يذكره أهل الطنطورة، فقد قتل في هذه الحادثة ١٠٥ أشخاص. جمعت وسجلت كل ما طالته يدي لأن سكان الطنطورة موجودون في مخيم اليرموك في سوريه. وبذلك سقطت الطنطورة، أخذوا الرجال إلى معسكر الاعتقال في أم خالد، وطردوا النساء المتبقيات وهدموا القرية بالبلدوزرات وأقاموا فوق أنقاضها مستوطنتي دور ونحشوليم. لكن بيت أحمد الحاج

محمود اليحيى ما زال منتصباً على شاطىء البحر، يحكي حكاية من الحكايات الدموية عن فلسطين».

وينهي نجيب تقريره بقائمة من ١٦ اسماً من شهداء الطنطورة الذين سقطوا في معركة الدفاع عن القرية، وكذلك بقائمة جزئية لاثنين وعشرين اسماً من بين ما لا يقل عن ١٠٥ وربما أكثر بكثير ممن قتلوا أو ذبحوا في الطنطورة، قائلاً: «وبذلك تم القضاء على قرية فلسطينية وأغلق ملف مذبحة بشعة لم يخلدها التاريخ الفلسطيني المعاصر ولو بكلمة واحدة واكتفينا بسجل أسماء شهداء فلسطين. تسعة شهداء فقط سقطوا مدافعين عن أرض الطنطورة، لكن من أجل التاريخ والحقيقة، يجب أن نشير إلى أن ١٠٥ على الأقل سقطوا في الطنطورة، معظمهم راحوا ضحية جريمة بشعة – (تجدر الإشارة إلى تناقض بين الرقم ١٦ المشار إليه باعتباره عدد شهداء الطنطورة، والرقم ٩ الذي يتحدث عنه الكاتب في ما بعد) – دون أن نتمكن من ذكر جميع أسمائهم لصعوبة الامر».

إلى هنا من تقرير نجيب، وقبل أن نواصل، لا بد من العودة إلى السؤال عن صدق ما ورد في تقريره عن دور «يعقوب المختار» وجماعته من زخرون يعقوب في الطنطورة يوم احتلال القرية، وعلاقة زياد حصادية (أبو صالح) بالتقرير، الذي ظهرت صورته فيه تحت عنوان: «بعد سنوات دعس على رقبة القاتل». ما دام السؤال في هذين الأمرين مفتوحاً، وهو ما رفض نجيب في محادثة شخصية بيننا التحدث فيه، ناصحاً بالذهاب إلى زخرون يعقوب واستقصاء الأمر، فستظل هناك ظلال من الشك حيال بقية ما ورد في تقريره.

أما المرة الثانية التي نشرت فيها «كل العرب» عن أحداث الطنطورة فكانت في ١ / ١٠ / ١٩٩٧، بقلم الصحفية رنده أبو عابود، وهي من الفريديس وابنة لعائلة أصلها من إجزم. تُقدم أبو عابود في تقريرها الذي يحمل العنوان «ذكريات وأسى على أيام غابرة» عدداً من تذكرات الحاج عبد الرحمن العرجا من عائلة دكناش الذي سيشار إليه لاحقاً باعتباره أحد الشهود المركزيين حول الطنطورة، والحاج توفيق أبو صلاح (أبو العبد) ومحمد عبد الرازق حصادية (أبو رياض)، من الأيام التي سبقت الحرب. وتحت عنوان «سقوط الطنطورة» تقتبس الصحفية عن «أبو فهمي»: «كنت شاهداً على المعركة. بعد الواحدة ليلاً. في ١ / ٦ بدأ الهجوم على القرية من كافة الاتجاهات».

(وهنا لا بد من التنويه إلى أن تاريخ احتلال الطنطورة هو ليل ٢٢ – ٢٣ / ٥ / ٤٨، ولا نعلم ما الذي دفع «أبو فهمي» إلى ذكر أول حزيران كتاريخ للمعركة على الطنطورة. وإلى بقية أقوال «ابو فهمي»:)

«كنا نملك القليل من السلاح الشخصي الخفيف، ولكن ماذا نفعل بالمجنزرات التي أطلق اليهود من داخلها النيران في كل الاتجاهات.. كان على سطح المدرسة «بُرنّ»، لكن ذخيرته نفدت. في الصباح استسلمت القرية، على أمل أن تبقينا العصابات أحياء ولا تَهدم القرية. لكن ما حدث أنهم جمعوا سكان البلد في الساحة، وأوقفوا كل من بقي ووجهه إلى الحائط وقتلوهم بدم بارد. كنت شاهداً على هذه الجريمة البشعة. قتلوا ٩٥ شخصاً.. سجلت أسماءهم. ومن بقي حيّاً أدخله اليهود في شاحنات جلبوها وأنزلوهم في الفريديس. من هناك بدأت الهجرة الثانية إلى سورية

ولبنان والأردن. كانت هناك مجموعة من الرجال ممن أخذهم اليهود إلى السجن، بينما نقلوا العجائز إلى طولكرم، ومنها انتشروا في العالم العربي».

ورد ذكر المذبحة في الطنطورة في مطبوعة أخرى هي الدليل السياحي الإسلامي لأحمد فتحي خليفة، الذي يشير في الصفحة المخصصة للطنطورة بأن «مذبحة ارتكبت بحق سكانها»[٨٧]. وهناك كتاب آخر يذكر القتل في سياق الحديث عن الطنطورة وضعه المؤرخ ابن قرية إجزم الدكتور مروان الماضي بعنوان «قرية إجزم – الحمامة البيضاء»، ورد فيه أن «العدو الصهيوني شرد سكان القرية ودمرها عام ١٩٤٨ وقتل العديد من شبابها وأسر آخرين»[٨٨].

وحقاً، يتبين من الشهادات الخاصة بالطنطورة، التي، لشدة الدهشة – ولعل الأمر غير مدهش البتة – لم توثق حتى الآن، أن احتلال القرية في ختام قتال عنيد من أهلها، وصل في بعض الحالات حتى الرصاصة الأخيرة، كان مقروناً بتصرفات وأفعال شاذة للغاية، وبضمنها اطلاق النار بدم بارد على أناس مكشوفين بلا حماية، وسكان مدنيين لم يقاتلوا ولا سلاح لديهم، وذلك بعد أن استسلمت القرية بكاملها، رسمياً، أمام القوات اليهودية، قبل طرد البقية – المئات الكثيرة من الرجال والنساء والاولاد.

عبد الرحمن دكناش، «أبو فهمي»، انسان عجوز اليوم، في الثامنة والثمانين من العمر، لكن ذهنه حاد وحديثه واضح وصاف تماماً، يعرفه الناس جيداً منذ عشرات السنين، وهم من أبلغوني أنه من الحكماء للغاية الموجودين في القرية، وهو ما تأكد لي بعد التقائي به. في البداية لم يتحمس لفتح الموضوع، وقد بدا أن ليس كل الذكريات التي يحملها معه الرجل هي من ذلك النوع الذي هو معني بتقاسمه مع الآخرين. «أبو فهمي» انسان بسيط، خريج ابتدائي، مولود في الطنطورة هو ووالده وجده، منذ عهد ابراهيم باشا (في النصف الاول من القرن التاسع عشر). عمل أبو فهمي سنوات طويلة فلاحاً، لكن البريطانيين في سنواتهم التسع الأخيرة هنا، بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، استوعبوه حارساً في خفر السواحل، حتى أنه تلقى منهم تعويضات لدى خروجهم بقيمة ٢٧,٣٠ جنيه فلسطيني.كان أبو فهمي شرطياً غير رسمي، لم يحمل حتى رقم الخدمة كشرطي، لافتقاده إلى مواصفات الخدمة في الشرطة البريطانية (طول معين، وغيرها من المعطيات الجسدية). لذلك تلقى تعويضاً بقيمة شهر واحد فقط، ولم يتلق تقاعداً ثابتاً مثل بقية من استوعبتهم الحكومة البريطانية في العمل ولا يزالون يتلقون منها رواتبهم حتى اليوم.

وهذا ما يحكيه أبو فهمي عن الطنطورة:

«الاسم الأصلي للقرية هو دره، ومع السنين فقط صار الطنطورة. في عام ١٩٤٨ كان في البلد ١٦٠٠ – ١٨٠٠ نسمة، الكثيرون منهم موسرون وأغنياء (...) في المعركة الختامية نفدت الذخيرة فألقينا أسلحتنا ولوحنا بالاستسلام. عندها دخل الجنود اليهود القرية وجمعوا الرجال في مجموعات على شاطىء البحر قرب إحدى البنايات. خلال ذلك تنقل جنود يحملون رشاشات برن، وكانوا بين الحين والآخر يطلقون النار ويقتلون ويجرحون».

عندما وصلوا إلى الشاطئ – بموجب أقوال أبو فهمي – قام الجنود بتجميع الجميع في مكان واحد ونصبوا قبالتهم عدداً من آلات اطلاق النار، وانشغلوا بالاستعدادات الأخيرة لإعدامهم

بالرصاص. في هذه المرحلة وصل الشاطئ بعض اليهود، بينهم مختار زخرون يعقوب، وهم من أنقذ السكان من ضائقة كبرى، بعد أن أكدوا كونهم من السكان الاصليين.

أبو فهمي: «بدونهم، لا أعرف كيف كان سينتهي الأمر. أجلسونا على الأرض، إلى أن جاء أحد قادتهم من إحدى المستوطنات المجاورة، وكنا نعرفه هو الآخر. سألني عما إذا كنت أعرف جميع سكان القرية، وعندما أجبت بالايجاب سلمني دفترين وأقلاماً وأمرني بتسجيل أسماء جميع الشهداء. بعدها أحضر عشرة أشخاص وكلفنا كلنا بتجميع الجثث ودفنها».

يقول أبو فهمي أنه سجّل في ذلك اليوم وعلى دفترين أسماء ٩٥ رجلاً وامرأتين ممن تعرف على جثامينهم في المكان، «لكننا لم ننه العمل، فقد كان بين رجالنا من الطنطورة ممن عملوا معي في مواراة الجثث في التراب شاب عمل من قبل مدة من الزمن في كيبوتس معيام صفي وفَهم العبرية، وقد سمع أحد الجنود يقول لزميله أنه عندما ننهي العمل فسيقضي علينا أيضاً. ترددنَا في ما إذا كان يجدر بنا محاولة الهرب وإن لم يكن هناك مكان نهرب إليه، فقد كان اليهود في كل مكان. وبينما نحن في ترددنا وصل إلى المكان بسيارة تندر شاب يدعى إرييه عمل على ما أظن في كراج في الكيبوتس المذكور، وقد تعرف على الشاب من عمله لدى اليهود، فحدثه الشاب عن ضائقتنا قائلاً: اليوم يومك! وبالفعل، توجه الشاب اليهودي إلى القيادة حاملاً معه أوراقاً قدم لكل واحد منا نسخة وحملنا بسيارته ونقلنا إلى شرطة زخرون يعقوب وألحقنا ببقية رجال القرية الذين كانوا معتقلين هناك، وبذلك يكون قد أنقذنا من موت محتم».

ورداً على سؤال صريح مني حول عدد الأشخاص الذين قتلوا في القرية بعد استسلامها لم يعرف أبو فهمي، أو لم يرد تحديد رقم مؤكد، لكنه عاد وكرر مراراً أنه استمع في الراديو في ما بعد، بينما كان معتقلاً في شرطة زخرون يعقوب، وكذلك من عدد من الأشخاص، أن عدد القتلى في القرية يصل إلى ٢٥٠ شهيداً، وإن كان قد استمع إلى ذلك بينما كان خارج القرية. وفيما يخصه شخصياً، فقد أحضروا بعد عدة أيام عدداً من أبناء الطنطورة ممن مكثوا في الفريديس لاستكمال تجميع جثامين الشهداء ومواراتها التراب، وكذلك لاستكمال تدوين قائمة بأسمائهم. ويواصل أبو فهمي: «كثيرون قتلوا بطرق غريبة ومختلفة؛ عدد كبير من الجنود والضباط الصغار أطلقوا الرصاص وقتلوا عامدين حسب نظرية أُقتل قبل أن تُقتل، ولعل الكثيرين من القتلى لقوا مصرعهم نتيجة مبادرات فردية لهؤلاء، الذين لا يمكن الجزم بأنهم نسقوا ذلك مع الكبار أو مع قادتهم المباشرين». تم احتجازهم ثلاثة أيام في شرطة زخرون يعقوب لينقلوا في ما بعد إلى سجون أخرى قبل طردهم نهائياً خارج الحدود. أما النساء والأطفال فقد نقلوا إلى الفريديس.

«السكوت أفضل»، يكرر محمود أبو صلاح (أبو نايف) عدة مرات في بداية الحديث معه من يوم ١٦/٢/١٩٩٧، محاولاً اغلاق الموضوع، وتجنب الخوض في التفاصيل. كان أبو نايف في السابعة عشرة من عمره آنذاك، عندما وقعت المذبحة في الطنطورة عام ٤٨. وهو أيضاً يتذكر وصول يعقوب المختار وزملائه إلى ساحة القتل بعد استسلام المقاتلين بثلاث ساعات، وحقاً – كما يقول – «كنا محظوظين كثيراً أنهم ظهروا، فقد اعتزم الجنود مواصلة قتل الناس بدون

توقف». وبموجب أقواله، فقد تواصل اطلاق النار في القرية طيلة ساعات ما قبل الظهر، رغم أن القتال توقف في الصباح. ورداً على سؤال عما إذا كان سمع أو شاهد شيئاً بصورة شخصية، حاول أبو نايف التهرب لكنه تحدث عن أفراد عائلته الذين استشهدوا في ذلك اليوم، وهذا ما قال:

«مما أمكنني الاستماع إليه أثناء تنقلاتنا في السجون المختلفة – في زخرون ثلاثة أيام، وفي أم خالد ثلاثة عشر يوماً، وعندما هرب خمسة أو ستة منا قرروا توزيعنا على عتليت والجليل وعدد آخر من الأماكن – فقد قتل في ذلك اليوم ثمانون أو تسعون شخصاً وربما أكثر... من عائلتي وحدها قتل بعد المعركة في ذلك اليوم سبعة شبان تتراوح أعمارهم بين عشرين وسبعة وعشرين عاماً. مثلاً، بعد انتهاء القتال،خرج عمي الذي كان في الستين من عمره للبحث عن ابنه الذي كان في الحراسة مع قوات الدفاع المحلية في أحد أطراف القرية. أُصيب الأب الذي لم يكن مسلحاً بيده أثناء تفتيشه عن ابنه، الذي كان مزوداً ببارودة صيد. بعد مدة عثر الأب على ابنه قرب المدرسة عند مدخل القرية، واختفيا في إحدى المغر في مداخلها... بعدها جاء المسلحون اليهود الذين بحثوا عن سكان مختبئين في كافة زوايا البلد فعثروا عليهما أيضاً بالتالي، فما كان منهما الا أن استسلما بالطبع، من دون مقاومة. بعد تحقيق قصير تُرك الأب وابنه تحت رحمة اثنين من المسلحين؛ الأول يمني والثاني ڤوزڤوز (اشكنازي)، وقيل لهما أن يصنعا بهما ما يشاءان...».

وبالفعل، وكما حدّث أبو نايف، لم يمض وقت طويل حتى أطلق «الأشكنازي» النار على ابن العم وقتله في الحال. أما «اليمني»، بالمقابل، فقد تعامل مع الأب بقدر كبير من المراعاة، وبخاصة بعد أن علم بأن القتيل ابنه. وبعدها نقله إلى مكان التجمع الكبير لبقية أهل القرية على شاطىء البحر، وألحقه بهم. مع الوقت حدّث الأب أفراد أسرته وأهل بلده بما حدث لولده، ولم يجد في ذلك مستقراً وراحة له. وعندما غادر مع من طردوا وصل إلى الأردن ومنه إلى سوريه، لكنه كان قد فقد طعم الحياة، وفقد صوابه أيضاً، ومات قبل سنوات دون أن يصحو من مصيبته.

ويضيف أبو نايف: «باستثناء هذه الحالة كان لي أيضاً ثلاثة أبناء عمومة تولوا جمع جثث القتلى، وعندما كانوا في عملهم أطلقوا عليهم وقتلوهم. بعدها أطلقوا على ابن عم آخر، وكان هناك اثنان من عائلتي قد قتلا في نفس اليوم في القرية... هذه حالات أكيدة أعرفها بنفسي، لأنها تخص أفراد عائلتي، وقد عرفتهم شخصياً، وعلمت وشاهدت جزئياً ما حدث لهم...

أما الأطفال والصبية والنساء فقد أخذوهم إلى الفريديس وبعد مرور أسبوع أو أسبوعين نقلوا إلى طولكرم... وأما القتلى فقد دفنهم أشخاص من عندنا في قبور جماعية كبيرة في الموقع... يوجد في كل قبر كهذا أربعون أو خمسون شهيداً... كذلك فإن بعض من شارك في حفر القبور قتل في ما بعد بدم بارد وبلا حساب... أما أنا شخصياً فقد نجوت لمعرفتي الشخصية بأحد اليهود الذين كنت أعمل لديهم منذ أكثر من ست سنوات. آنذاك كان العمل كثيراً والعمال قلة... كانت الأعشاب في الكرم أطول من قامة الانسان».

تتصل هذه المسألة الاخيرة، حول قتل حفاري القبور، التي وردت في أقوال أبو نايف، وتطابق

ما حكاه أبو فهمي، الذي كاد يلقى وزملاؤه نفس المصير لولا أنهم أُنقذوا في اللحظة الأخيرة بأيدي اشخاص من «معيان صفي» وزخرون يعقوب، بعد أن تعرفوا عليهم كمن يعمل لديهم، لذلك أخذوهم من هناك قبل استكمال تجميع ودفن الجثث. وعلى ما يبدو، ونتيجة العدد الكبير للقتلى وانتشارهم في كافة أرجاء وزوايا القرية، استغرق دفنهم عدة ايام.

وهناك سؤال آخر أثاره أبو نايف في حديثه لي، وهو مجرد سؤال بلاغي لا يخلو من نبرة مفارقة، وهو أين «اختفت» القبور الجماعية المحفورة آنذاك لشهداء الطنطورة؟ وسؤال بلاغي آخر: لماذا لم تؤشَّر هذه الحفر بطريقة ما لتمكين أقارب الشهداء من الوصول وتفقد قبور أعزائهم؟ لكن أبو نايف حدثني أيضاً أن كيبوتس «نحشوليم» و «موشاف دور» أقاما في أرض القبور مباني وساحات وقوف للسيارات في نطاق مشروع السباحة والاستجمام. طرح هذا السؤال الاحتجاجي من جانب كثيرين ممن قابلتهم من العرب، الذين أكدوا على ذلك بصورة خاصة، منوهين إلى إقامة نصب تذكاري للقتلى الاسرائيليين في معركة الطنطورة، المقام فوق رابية المدرسة، المستخدمة اليوم كمحطة لأبحاث الصيد، تابعة لوزارة الزراعة.

عن أحداث الطنطورة حدّث أيضاً (في مقابلة معه من يوم ١ /٣/١٩٩٧) عبد الحافظ محسن، أبو نبيل، الأخ الاصغر لسامي محسن، الذي جاء في الأصل من إجزم، لكنه في ليل المعركة تواجد هناك بالصدفة، لدى أقاربه. كان أبو نبيل في تلك الأيام طفلاً في السابعة من عمره، وبصفته كذلك فهو لم ير بالطبع أو يدرك كل ما دار في تلك الليلة وفي الغداة؛ وهذا ما يقوله:

«حللت لمدة أسبوع ضيفاً على عائلة شورة، وهم من أقاربنا في الطنطورة. في تلك الليلة، ٢٢ من أيار، وفي حوالي العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً، انهال قصف ثقيل ومفاجيء من الراجمات أو المعدات الثقيلة الأخرى من كافة الاتجاهات على الطنطورة، استمر ساعات طوالاً. عند الفجر، ربما في حوالي الثالثة صباحاً، جمعوا كافة الأولاد والفتيات والشيوخ وأدخلوهم إلى بناية حجرية كبيرة كانت مسورة بجدار. بعد أقل من ربع ساعة على دخولنا تلك البناية الكبيرة جاء أفراد جيش اليهود إليها وأخرجونا من المبنى ونقلونا إلى مكان آخر يدعى البيادر، وهناك بقينا حتى السادسة أو السابعة تقريباً؛ في كل الأحوال، كان النهار قد طلع عندما جاء أحدهم وقال إن كل شيء انتهى وأن الطنطورة سقطت ويجب رفع الاعلام البيضاء...

بعد ذلك، وعندما كان الجميع في البيدر، أخذ اليهود ٦ – ٧ شبان صغار السن وأطلقوا عليهم النار وقتلوهم أمام الجميع بلا أدنى سبب، وهو مشهد لن أنساه ما حييت. بالطبع لا يمكنني القول ماذا فعلوا قبل ذلك، لعلهم كانوا مع المقاتلين وشاركوا في المعركة، ولعلهم كانوا حرس القرية، الذين قالوا إنهم ظلوا يقاتلون حتى نفدت ذخيرتهم.. لا أملك أية فكرة عن ذلك. لكن لا شك عندي أن هؤلاء الشبان لم يكونوا مسلحين عندما أطلقوا النار عليهم، ولم يقوموا بأي عمل عدائي، وفي كل الأحوال فإنهم لم يختلفوا بشيء عن بقية الناس الذين كانوا يعدون بالمئات، وهو ما شاهده كل من حضر في ذلك الحين...

(بالمناسبة؛ عندما يتحدثون عن الاستسلام لا أعرف ما إذا كانت البلد كلها استسلمت في آن واحد. لعل المعارك كانت ما تزال دائرة في جزء من بيوت القرية من بيت لبيت، لأن صوت

الرصاص تواصل كل الوقت...)

عندما غادرنا البيدر وركبنا الشاحنات إلى الفريديس شاهدت في شوارع ودروب القرية جثث القتلى ملقاة هنا وهناك، دون أن أعرف بالطبع كيف ماتوا، لكن ليس من الواضح أن جميعهم قتلوا في المعركة...

في اليوم التالي أخذ اليهود عدداً من الاشخاص من الفريديس لدفن قتلى الطنطورة وقد حكى أحدهم في ما بعد أن الجنود اليهود الذين أخذوهم للعمل في حفر القبور، اعتزموا في الواقع قتلهم في نهاية العمل، وفقط بفضل معرفتهم بأشخاص من زخرون نجوا في اللحظة الاخيرة».

مرة أخرى، فإن هذه الرواية تعيد إلى الأذهان رواية أبو فهمي الذي نجا هو الاخر كما أسلفنا بطريقة مماثلة. هل يمكن أن يكون القصد نفس الرواية؟ من الصعب معرفة ذلك بدقة، كذلك لا يمكن اليوم فحص أو مقارنة الجدول الزمني لمختلف الروايات بصورة تامة.

جميل حسن عبد المالك خليل، أبو جاسر، مولود في سنة ١٩٢٧ في الطنطورة، كما هو الحال مع زوجته جميله إحسان شوره الخليل، أم جاسر. وهذا ما حدثني به أبو جاسر (في مقابلة شخصية معه من يوم ٥/٤/١٩٩٧):

«أتذكر أن عجائز زخرون أتوا إلى عجائز الفريديس وأنه كان هناك نوع من الاتفاق بين القريتين، بأن يأخذ المنتصر تحت حمايته الطرف الثاني. الطنطورة أيضاً كانت ذات علاقة طيبة مع المحيط اليهودي. حتى أنه كان في الطنطورة من تحدث لغة الإيديش. كانت هناك علاقات عمل وتجارة، ولم تشهد الطنطورة أية استعدادات للحرب... في الطنطورة كلها لم يكن أكثر من عشرين بارودة، وخراطيش صيد قديمة بمعظمها، ولم تكن سوى رصاصات معدودة لكل واحد... وكان هناك بُرنّ فرنسي واحد فوق مدرسة البنين، ولكن من دون ذخيرة».

تناقض هذه الشهادة عن خراطيش الصيد القليلة والذخيرة المحدودة شهادات أخرى مختلفة، مثل شهادة «أبو خالد» وآخرين، ممن شهدوا بعدم وجود نقص، وبالتأكيد ليس بالسلاح.

ويضيف أبو جاسر: «كذلك لم يكن في الطنطورة جنود غرباء. لا سوريون، ولا عراقيون، ولا أردنيون أيضاً. ذات يوم جاءني يغئال نايدرمن من زخرون يعقوب وقال لي: اذهبْ واحضر زوجتك وعائلتك، وعندما سألته عن السبب قال لي: لا يمكنني أن أُفصِّل أكثر من ذلك. خفت الذهاب، لئلا يتهموني بالخيانة. فلم اذهب، لكنني لم أبلغ احداً بشيء، لشدة الخوف. في اليوم التالي وقع الهجوم ليلاً على الطنطورة. جاء الجنود بالقطار ومن البحر ومن كافة الجهات، وعندما جاء الصباح كان كل شيء قد انتهى. بعد أن استسلمت القرية كلها بدأ القتل الواسع. فصلوا الشباب عن النساء والأولاد، أوقفوهم جميعاً في صف واحد قرب البيدر وبدأوا يطلقون عليهم ويقتلونهم بقيادة الضابط شمشون من المراخ. شمشون – (هو شمشون مشبيتس، رجل «شاي»، وابن عضو منظمة «هشومير» بن تسيون مشبيتس. وهو مولود في الخضيرة ومتوفى في العام ١٩٩٥، ويتذكره معظم سكان الطنطورة كمن أشرف على أعمال القتل في القرية بعد احتلالها) – هو الذي أشرف على كل شيء، وكان يقرأ أسماء أشخاص بحث عنهم...».

بدأ شمشون مشبيتس عمله حارس حقول في العام ١٩٣٥. وقد تحدث في كتاب عن جمعية

الحراس عن أيامه الأولى في «المهنة» وطريقته في تعلم اللغة العربية وعادات العرب وطابعهم الحياتي: «في تلك الفترة لم أتمكن جيداً من العربية، فقررت أن عليّ تعلم اللغة واتقانها تماماً، لأن حارساً لا يعرف العربية لا يمكنه القيام بوظيفته كما يجب. لذلك انتقلت للسكن في قرية عربية، عشت هناك وأكلت وشربت واشتركت في كافة جوانب الحياة فيها، في الأفراح والأتراح. وقد تعلمت من ذلك لغة وعادات العرب..

ذات يوم شاهدت عدداً من فلاحي العفولة يركبون جيادهم على امتداد القيشون ويبحثون في مياهه. اتجهت نحوهم راكباً وسألتهم ماذا فعلوا هناك. حدق الفلاحون بي بدهشة وسألوا: بعدك عايش؟ هناك شائعات بأنهم قاموا بتصفيتك فجئنا نبحث عن جثتك. كل ذلك لأنهم لم يروني في العفولة. وعدتهم بالمجيء من حين لآخر لكي أريهم انني ما زلت على قيد الحياة!»[٨٩].

يرد ذكر شمشون مشبيتس في كتاب شاؤول دغان كمن اهتم في ما بعد بإجلاء لاجئي الطنطورة من قرية الفريديس التي كان قد وصلها قبل أيام ، المئات من النساء والعجائز والأولاد، الذين بقوا من دون أية ترتيبات خاصة بالمأكل والمنام. وعن ذلك يكتب دغان: « يقوم رئيس اللجنة أبا شختر بإبلاغ زملائه بنقل اربعمائة أسير وألف وستمائة رجل عجوز وامرأة وطفل إلى الفريديس المجاورة. ويشير رئيس اللجنة إلى أنه توجه بهذا الخصوص لقيادة اللواء منوهاً إلى ظروف المهجرين البائسة التي قد تتسبب بالأوبئة والأمراض. قبل أسبوعين توجه إليّ شمشون مشبيتس وسألني عن رأيي بخصوص النساء والعجائز والأطفال من الطنطورة. نصح أن نقوم نحن أبناء زخرون بالاعتناء بالأمر، لكي يسارع الصليب الأحمر إلى حل ضائقتهم الصعبة وينقلهم إلى المنطقة العربية. وقد تم ذلك الأمر. حالياً تم فرض طوق على الفريديس لمنع دخول الغرباء إليها»[٩٠].

ويواصل أبو جاسر حديثه لي: «في مرحلة معينة، عندما أراد الجنود مواصلة القتل، جاء أشخاص من زخرون يعقوب ومنعوهم من القيام بذلك. بعدها أخذوا جميع الشبان إلى السجن والفتيات إلى الفريديس (...) وعدا عن أن قسماً كبيراً من النساء والأولاد أصبحوا أبناء عوائل ثكلى، فقد نشأت في الفريديس مشكلة الازدحام والجوع. لم يجد الناس ما يأكلونه، لأنهم لم يتحضروا في القرية لمثل هذا العدد من اللاجئين. بعد أسبوعين – ثلاثة أخذوا الجميع، ومعهم جميلة زوجتي، إلى خلف الحدود، حتى مدرسة خضوري في طولكرم، وذلك بإشراف الامم المتحدة».

وعلى هذه الأقوال تضيف جميله، أم جاسر، الزوجة: «الى أن نجح الاشخاص من زخرون بوقف إطلاق النار، كانوا قد قتلوا ٨٥ أو ٨٦ انساناً، بينهم امرأتان. لم أشاهد القتل بأم عيني لأنهم فصلونا عن الرجال منذ البداية، لكنني شاهدت كل شيء من بعيد، كذلك سمعت أصوات الرصاص كل الوقت. بعدها شاهدت أرتال الجثث ملقاة في كل مكان، فقاموا بتجميعها فوق عربات استخدمت لنقل القش والطحين وجمعوها بالقرب من بيت عائلة دكناش. حسبما علمت، جاء في اليوم التالي أشخاص من الفريديس قاموا بدفن القتلى. كان هناك شخص يبيعنا البيض. في ذلك الصباح اختبأ في قن الدجاج، فأخرجوه ورموه بالرصاص. وقد حدثني والدي أنهم نادوا

على سليم أبو شكر من بين الناس، وأخذوه جانباً إلى داخل إحدى البنايات وقتلوه بالرصاص. (سوف نبحث لاحقاً أمر سليم أبو شكر وبتوسع). وكان هناك ثلاثة أخوة من دار أبو سلبود، أطلقوا النار على اثنين منهما وقتلوهما في مرحلة مبكرة نسبياً، بينما كان الأخ الثالث بين جامعي جثث القتلى. في لحظة معينة تعرف الأخ الثالث على شقيقيه المقتولين، وأبلغ بذلك الجندي المشرف على عمل جامعي الجثث. في تلك اللحظة أطلق عليه الجندي النار قائلاً: طيب. الآن ستلحق بهم. وقتله في الحال.

(...)

أخذوا الرجال إلى معتقلات في السجون المختلفة، مكثوا فيها عدة شهور، لكنهم نقلوا النساء والشيوخ والأطفال وراء الحدود، إلى طولكرم، والخليل وغيرهما. كل من ذهب للخليل أرسلوه إلى سوريه. أقام الصليب الاحمر الصلات بين العائلات وألحق الرجال بالنساء والأطفال الذين غادروا قبلهم».

لم تنته روايتنا بذلك. بعد عدة شهور، وبعد أن أُطلق سراح أبو جاسر من الاعتقال، حاول اللحاق بعائلته فجوبه بالصعاب. حدّث أبو جاسر: « كان هناك أمر حكومي بأن كل من زوجته في الخارج يستطيع جلبها. تبين أن جميلة زوجتي كانت في طولكرم. في البداية لم ترد الانفصال عن والدتها وجدتها بعد ما شاهدته من قتل ومعاناة. توجهت بصحبة عدد من الأشخاص إلى القائمقام في حيفا وتلقينا أوراقاً ثبوتية نقلناها لمختار الفريديس. عندها جوبهت بالرفض وبعد أن فحصت تبين أن البعض أخبرهم بأن جميلة ليست زوجتي. ومرغمين اكتفينا بلقاء من ربع ساعة عند بوابة مندلباوم في القدس. لم ينفع شيء، ولا حتى اليهود الذين جندتهم لمساعدتي.. حلفوا اليمين بأنهم يعرفوني وزوجتي، فلم ينفع بشيء... بالتالي نجحنا بتهريب جميلة عبر قرية باقة الغربية».

حليمة زيدان أيوب مولودة في العام ١٩٣٤، وهي ابنة لعائلة طنطورية محترمة ومهمة. تقول حليمة إنها كانت شابة صغيرة في فترة المعركة على الطنطورة، فلم تعرف أو تقدّر حجم المصيبة ولا أبعادها. حليمة تذكر شيئاً واحداً أساسياً (استمعت إليها في مقابلة خاصة من يوم ١١/٣/١٩٩٧)، لم نستمع إليه كثيراً من الآخرين الذين قابلتهم: «يؤسفني حتى اليوم أننا لم نسمع بأقوال اليهود محتلي الطنطورة، الذين اقترحوا علينا بكل بساطة البقاء في القرية وعدم التحرك لأي مكان، فلم نقبل بذلك نحن الأغبياء وعديمي الإيمان، فتخلينا عن قريتنا ومنازلنا الجميلة بسبب مشاعر هبت علينا وقيدتنا فارتكبنا كلنا نفس العمل الأخرق، الذي ندمنا عليه كثيراً في ما بعد. لا أعرف كم من الوقت أمكننا البقاء في حال تيسر ذلك، الا أن الفرصة، حتى لو كانت موجودة فعلاً، لم تستغل بالطبع، وتلك خسارة كبيرة».

من الصعب اليوم، ولعله من غير الممكن، فهم مصدر هذه الشهادة الصادرة عن حليمة حول امكانية البقاء في القرية، إذ أننا نعرف اليوم أنه منذ لحظة اندلاع المعارك لم يبق لدى حليمة أو أي انسان آخر أي خيار للبقاء في داخل القرية. ومع أن البحث في هذه المسألة يظل نظرياً، لكنه، في نهاية المطاف، لا توجد ثقة تامة – مع أن البعض ممن قابلتهم تحدثوا عن ذلك واكدوه أيضاً –

بأن استسلام القرية «قبل فوات الأوان» وتسليمها السلاح كان سيبقيها في مكانها، على رغم كونها مؤشرة ضمن خريطة الاستيطان الجديدة التي أعدها يوسيف ڤايتس[٩١].

مما هو معروف ووارد في أقوال غالبية من قابلتهم أن القرية حتى آخر ساكنيها أُفرغت تماماً خلال ثلاثة أيام على الاحتلال. ومن بقي حياً من الرجال نقل إلى شرطة زخرون في نفس اليوم، بينما تم ترحيل بقية أبناء القرية غير المحاربين باتجاه الفريديس خلال يومين – ثلاثة لا أكثر. وهنا يجب أن نتذكر بأن القرية بقيت في نهاية يوم القتال وبقية الميتات الغريبة التي لاقاها الرجال مع مئات الجثث من ابنائها القتلى، الذين كانوا بانتظار من يدفنهم في الأيام التالية، ممّا يعني أن بقية السكان كانوا من الأرامل والأيتام.

مهما يكن من أمر، ففي ١٤/٦/١٩٤٨، وصلت مجموعة المستوطنين اليهود الاولى إلى أراضي الطنطورة، لإقامة مستوطنة بحرية، اسميت بعد وقت قصير جدا «نحشوليم» (دروب).

وعن العلاقات بين أهل الطنطورة وسكان زخرون يعقوب، وعن دوره وما تذكره من المعركة على القرية، تحدث يوسيف غراف (في مقابلة خاصة): «لم تكن هناك أبداً علاقات حسنة مع الطنطورة. كانت تلك قرية شريرة. باستثناء عائلة بونشطاين اليهودية، المولودة هناك وطيلة عمرها وهي مالكة للأرض فيها، لم تكن لنا علاقة بهم. »

ولدى يحزقيل بونيشطاين، الذي كان في الستين عندما قابلته يوم ٢٩/٥/١٩٩٧، ذكريات بعيدة من سنة ١٩٤٨: «... عشية الحرب أوفدت الهجناه أبي على فرسه في محاولة وساطة اللحظة الأخيرة، فلم تسفر عن شيء. كان ذلك أياماً معدودة قبل سقوط القرية بأيدي المسلحين اليهود (...) كانت في الطنطورة قوة قاتلة من عدة كتائب، تشكلت بغالبيتها من الغرباء وبضمنهم العراقيون، وبعضها من الشبان، الذين رفضوا الاستسلام كما نعلم. لم تشهد قرى أخرى مثل هذا الشيء. كان هناك كمين في القسم الجنوبي من القرية، نصبه أهل البلد، وفيه قتل أحد عشر مقاتلاً منا مرة واحدة. رداً على ذلك انقض مقاتلونا في ما بعد غاضبين وأطلقوا النار على أي شيء متحرك، لذلك قتل الكثيرون من أهل الطنطورة (...) كانت المعركة الاقسى في القطاع الشرقي، قبالة المدرسة، من هناك قنصوا جنودنا من مسافة قريبة نسبياً. لم يكن هناك قتال داخل القرية، كما أذكر. كنا أولاداً، فصعدنا فوق جبل الفريديس وتابعنا كل ما يجري. قال أبي إن القتل كان كبيراً. ولكي يتم دفن جميع الموتى كان لا بد من جلب أشخاص من الفريديس ظلوا يعملون في ذلك عدة ايام، بالعربات والخيول (...) في سنوات الخمسين المبكرة كانت بعض البيوت ما تزال قائمة في مكانها، لكنهم في السنوات ٥٣ – ٥٤ أزالوا كل شيء، بما في ذلك المقبرة، التي تقف فوقها اليوم ساحات وقوف السيارات لمشروع السباحة والاستجمام لنحشوليم ودور. عندما توجهنا لمسح القرية أثناء خدمتي العسكرية، توجهت إلى هناك بصحبة مساح. غرزت أعمدة حول القبور، لكن ذلك لم ينفع. أزالوا كل شيء».

وجاء في مقابلة شخصية مع يوسيف غراف: «... دائماً كانت لنا نزاعات مع الطنطورة، وبخاصة في مناطق السباحة والاستحمام على الشاطىء. دخلت الطنطورة بصحبة عضو آخر في الإيتسل هو بونشطاين، قبل الاحتلال بعشرة أيام، مندوبين عن المنظمة. توجهنا إلى بيت

المختار أحمد الحاج للتوصل إلى تسوية بشأن الاستسلام... كانت الطنطورة قرية ضخمة تعد عدة آلاف من السكان... ».

وعن الصدام الدامي مع الطنطوريين، يقول غراف: «... عندما شاهد بقية رجالنا ما حدث لرفاقهم القتلى، انقضوا إلى الداخل وقتلوا كل ما صدفهم في طريقهم، وهكذا فعلوا في ما بعد داخل القرية، بدون تمييز... سار أفراد فرقة جيم في شوارع القرية وذبحوا كل من رأوه. انتشروا في القرية، أطلقوا النار وقتلوا كل ما شاهدوه، سلبوا ونهبوا كل ما وجدوه. يبدو لي أن معظم قتلى الطنطورة في ذلك اليوم أصيبوا بنيران أفراد فرقة جيم... كان هناك كثيرون أطلقوا عليهم بعد الاحتلال، لا أقل من ١٤٠ – ١٥٠ شخصاً قتلوا هناك في ذلك اليوم، وربما أكثر... أثناء الاجتياح، هرب قسم من السكان من القرية عبر الحقول الشرقية، باتجاه الفريديس والمنطقة الشمالية – الشرقية، حيث قرى المثلث الصغير. في لحظة معينة دخلت بيت أحد العرب. شاهدته مغطى ببطانية. أنزلتها عنه فعلمت أنه مصاب بقدمه. دلني على مكان بارودته، في الطابون، وبعد أن انتهيت من أخذ سلاحه دخل عدد من الجنود وأطلقوا عليه».

وعن نفس المرحلة، ونفس الفترة بالضبط، استمعت من يحيئيل بريسيل: «عند الفجر استسلم العرب. توقفت المقاومة فكفوا عن القتال، ومع بزوغ النهار دخلنا القرية. لم نصدف أحداً في طريقنا. لم أر أي أسرى. وصلنا إلى مركز القرية وتحضرنا، لا أكثر. في تلك الاثناء سمعنا عن زملائنا الذين قتلوا داخل الجيب. لم يكن هناك عرب في المنطقة عندما دخلنا، لعل آخرين اعتنوا بهم قبلنا.. قيل لنا إنهم هربوا باتجاه الشرق...».

وبموجب غراف، في حديثه معي: «عندما انتهى كل شيء نقلوا الرجال إلى معسكر اعتقال قرب هرتسليا، واستعدوا لإرسال الجميع إلى الطرف الثاني. عندها تبين وجود من أخفى الذهب والمال في ساحات بيوتهم، ولم يكونوا راغبين بترك مدخراتهم هناك. كان بعضهم غنياً جداً. عندها عاد بعضهم في اليوم التالي مع أفشطاين وبونشطاين لكي يحفروا ويستخرجوا مالهم وذهبهم... مقابل تسليم السلاح سمحوا لهم بالعودة، لمرة واحدة، إلى بيوتهم واستخراج مدخراتهم منها. بعد مغادرة الكتيبة التي احتلت القرية، بقيت فيها مجموعة كانت مهمتها مواصلة احتلال القرية وجمع السلاح».

كان طوڤيا ليشنسكي رجل «شاي» القديم في الطنطورة هو الآخر. وباعتباره من مواليد البلاد، وكمن ترعرع في المنطقة، يبدأ ليشنسكي حكايته بنوع من الذكرى الخاصة: «عرفت الطنطورة منذ ١٩٢٥. كنت طالبا في مدرسة في عتليت عندما جاء جيمس روتشيلد بسفينته حتى الطنطورة فجاء طلاب مدارس زخرون والمنطقة لملاقاته (...) في ١٩٤٨ صارت الطنطورة عملياً تجمعاً لكثير من الناس المعادين، الذين تلقوا السلاح والأموال عن طريق البحر، وتركزت فيها قوات كثيرة ضدنا... سال دم كثير مع احتلال القرية. مجموعة بكاملها من ثمانية أشخاص سقطت هناك، في كمين غادر.. . كانت معركة الطنطورة قاسية. جوبه المقاتلون بنيران جادة. هناك كانت النية منذ البداية مسح القرية وهو ما قاموا به فعلا فيما بعد[٩٢]. أنا شخصياً وصلت القرية بعد انتهاء القتال، كملحق للشؤون العربية مندوباً عن جهاز الإستخبارات شاي، بينما كان

شمشون مشبيتسس – الذي تواجد في القرية في يوم المعركة ملحقاً للواء الكسندروني – الممثل الشخصي لعزرا دانين، رجل الشعبة السياسية في الوكالة اليهودية. دائماً كان هناك ما هو غريب وغامض في العلاقات المعقدة بين هذين الجسمين، شاي والشعبة السياسية في الوكالة... بعد إبريل ٤٨ انتهيت إلى العمل في الموضوع العربي فقط. كانت لنا عدة مهمات في الموضوع العربي. كأن نحضّر للمعركة، ونوفر المعلومات. كان في الطنطورة بعض المسلمين البشناق، القادمين من البوسنة في يوغسلافيا. وكان عندي أيضاً مخبر اسمه توفيق قدقوده، كان بنفسه بشناقي الأصل. كانت مهمتنا بعد المعركة الدخول وراء المقاتلين، وجمع السلاح والتحقيق مع الأسرى، وهذه المهمات تواصلت في الطنطورة أيضاً. في مرحلة معينة أمسكت عربياً محلياً قال لي إن لديه سلاحاً في بيته في أطراف القرية، حيث توجد أمه أيضاً. وافقت على تركه يقوم بإخراج أمه، مقابل تسليم السلاح، بارودة انجليزية، فالنساء والأطفال سيتم اخراجهم بطبيعة الحال من القرية، فلم يكن عندي مشكلة مع طلبه. سرت وراءه شاهراً سلاحي وموجهاً إلى ظهره، عندما صادفت فجأة في الشوارع مجموعات من المقاتلين من خمسة – ستة مسلحين في كل مجموعة، كانوا يطلقون النار على كل من تحرَّك، ردّاً على العملية الغادرة... عندما شاهدونا أرادوا قتل العربي الذي كان معي، مع أني كنت شاهر السلاح وراءه. كانت لحظة كادوا يطلقون عليّ أيضاً. في مرحلة لاحقة توقف القتل. كانت التعليمات تقضي بتجميع جميع أهل الطنطورة ورميهم في الفريديس (...) كان في الطنطورة غرباء كثيرون كما هو حال الطيرة. جلبوا إليها كميات من السلاح من لبنان. من المعقول جداً أنه وقعت تصفيات بأسلوب شمشون وغيره. لا أذكر كمية كهذه من السلاح التي اكتشفت في الطنطورة في أية قرية أخرى. أخذت من هناك رصاصاً لبارودة الصيد كفاني عشرين سنة بعد ذلك».

عن عمليات البحث عن السلاح والكميات التي اكتشفت في الطنطوره، حدّث طوڤيا هيللر: «مع الاحتلال والسيطرة على القرية، جمعنا الناس والسلاح من القرية. كان معنا بعض الاشخاص من شاي قاموا بالتحقيق مع الأسرى حول أفراد العصابات وحول مخابىء السلاح في القرية، وبالفعل، فقد عثرنا في شاطىء البحر على ٣ – ٤ قوارب مغطاة وبداخلها كميات كبيرة من البواريد وخراطيش الصيد والراجمات والذخيرة وغيرها...».

كان آشير برايطبيرت (من مواليد بولونيا، ١٩٢٦) من سكان برديس حنه منذ العام ١٩٣٧. وفي عملية الميناء لاحتلال الطنطورة، كان قائد شعبة برتبة ملازم، في فرقة (ب)، ويقول (في مقابلة شخصية من يوم ١٩٩٧/٣/٩) : «كانت مهمة فرقتنا السيطرة على مرتفع الكركار إلى الشرق من القرية، للقضاء على موقع قناصة هناك، واحتلال المدرسة ومنطقة بركة الماء، والسماح بذلك بعمل الراجمات وماكينات النار. بعد جهود كبيرة وقتيل من بيننا نجحنا باحتلال المدرسة، لكنه اتضح لنا لاحقاً أن فرقة (أ) احتلت القرية بكاملها، فكانت جهودنا سدى... أعتقد أنه كان هناك خطأ في التخطيط بمهاجمتنا القرية من جميع الإتجاهات، من دون أن نبقي للمحليين جهة واحدة على الأقل للهرب. بين العاشرة – الحادية عشرة تلقينا أمراً بالوصول إلى وسط القرية فوصلنا. كان السكان مجمعين في عدد من الساحات الكبيرة التي كانت مسورة بجدران عالية،

بينهم الرجال والنساء والأطفال، ويبدو أن بعض الرجال تمكن من الهرب باتجاه المثلث الصغير. يمكن أن قتلاً حدث في القرية؛ لعلهم قتلوا البعض هناك، لكن الأمر ليس واضحاً ؛ لا أعرف ؛ مهما يكن من أمر، فإن ما يسمونه بالعربية مذبحة لم يحدث هناك. ربما من بعدنا ؛ دائما كنا نغادر المكان بعد يوم أو يومين لا أكثر».

وقد وردت في حديث برايطبيرت لي معلومة أخرى بحاجة لإثبات: «بعد احتلال القرية انزلونا فيها. عندما وصلنا إليها أخذنا كبشاً أو اثنين، حاولوا أخذهما منا لدى مغادرة القرية، لكن مقاتلينا أخذوا جميع قطعان الطنطورة – حوالي ١٥٠٠ رأس بقر وغنم، وحشوا جيوبهم بالكثير من النقود».

أما ميخه ڤيتكون (مولود في عام ١٩٢٩) فقد شارك هو الآخر في القتال ضمن فرقة (ج) : «كانت الطنطورة قرية غنية. أمكنني رؤية ذلك بنظرة من بعيد. لم تكن فيها بيوت الطين بل بيوت حجرية وأسطح باطون مستوية (...) كانت ليلة مقمرة فأطلقوا علينا قنصاً، كما لو كانوا يصطادون البط، فقنصونا بلا رحمة. وكانت عندنا مشكلة أخرى مع السلاح. سرنا في حقول رطبة بالندى الذي بلل أحزمة الرصاص التي كانت معنا. يخيل أنها كانت المرة الأولى التي نخرج فيها بعملية حاملين السلاح التشيكوسلوڤاكي الجديد. كان ذلك بعد المعركة على كفر سابا العربية، التي خرجنا منها بمعنويات عالية؛ ولسخرية القدر، فإن من علمنا استخدام هذا السلاح سقط في معركة الطنطورة بالذات... فقدنا ١٢ قتيلاً في عملية الطنطورة... – (معروف أن ١٤ مسلحاً يهودياً قتلوا في المعركة على الطنطورة) – عندما عدت إلى القرية كانت كلها تحت سيطرتنا. في عام ١٩٤٨ كانت الخبرة العسكرية تضاهي الصفر، حتى لدى كبار القادة. كان ذلك جيشاً مبنياً على الارتجال، أسس كثيراً على المعجزات والحظوظ. كنا محظوظين لأن من وقف أمامنا هم العرب، الذين كانوا دوننا في كافة المجالات. كانت كتيبتنا تدعى كتيبة السبت، لأننا في نهاية كل أسبوع كنا نخوض عملية جديدة؛ قبل الطنطورة بسبت واحد كنا في كفر سابا العربية؛ وبعد الطنطورة بسبت واحد كنا في قاقون.. وهكذا... تنقل قائد فرقتي في الطنطورة، نحمان كابلانسكي، بين السكان المحليين وصوّب باتجاه رؤوسهم مسدس براونينغ ٩ ملم. كل من تعاون وسلّم سلاحه بقي حياً، ومن رفض أطلق بكل بساطة على رأسه وقتله في المكان. قاموا بتصفية أسرى أثناء التحقيق، وكان هناك من رفض تسليم سلاحه حتى بعد أن أطلقوا عليه. في ما بعد سمعت أنهم عثروا على هذا السلاح في البحر. كانت هناك عدة مظاهر وأفعال. أحد جنود فرقتنا اغتصب مَرَة عربية وقتلها، وبعد أن حوكم وفصل من الخدمة، أعيد إليها جراء النقص في المقاتلين، وقتل في المعركة على كولي».

كان حايم يرديني (١٩٢٤) قائد شعبة ٣ في فرقة (أ)، وهذا ما قاله في حديث شخصي من يوم ١٩٩٧/٣/٩: «بموجب المعلومات الاستخبارية التي وصلتنا وكذلك بعد جولة القادة التمهيدية بالقطار، تلقت الطنطورة مساعدة من عدد من المصريين، وكانت هناك مخاوف أن تأتيها مساعدات مصرية أخرى عن طريق البحر (...) وصلت مجموعتي أولاً إلى القرية وبدأت تنادي على السكان لتسليم السلاح. خرجوا بأعلام بيضاء واستسلموا في الحال. باستثناء عدة طلقات

لا أكثر. جمعوا السلاح، وأوقفوهم بأيديهم إلى أعلى وذهبوا لفحص البيوت. فجأة أطلق قناص على أحد شبابنا من داخل أحد البيوت، فتحولت المنطقة إلى جحيم. عندما انتهى كل شيء. جميع المحليين الذين استسلموا من قبل وسلموا أسلحتهم، كانوا في عداد الموتى. عدد كبير جداً من الناس. لا أقل من ٢٠٠ وربما ٢١٠ أو ٢٢٠. كانوا الأغلبية الساحقة من قتلى الطنطورة، لأن القلة فقط قتلت خلال المعركة، بينهم بديع، ابن المختار، الذي كان مع حراس القرية. كنت شخصياً اثناء دفنهم. أحضرت عدداً من العرب من الفريديس للعمل على دفن القتلى، وقد استغرق ذلك عدة ايام».

يعتبر عدد الشهداء مسألة مختلفاً عليها، إذ لا يوجد اثنان ممن قابلتهم من اليهود أو العرب من يتذكر نفس الرقم، بل إن بعضهم لا يعرف شيئاً عن القتل. وهناك من ينكره من الأساس. بدءاً بقائد الكتيبة بينتس فريدان، مروراً بالضباط والملازمين وقادة الفرق وحتى آخر الجنود. قلة قليلة فقط من اليهود الذين قابلتهم يعترفون بالقتل ويؤكدون وقوعه، وبأعداد كبيرة جداً.

شلومو أمبير مولود في العام ١٩٢٣، وقد انضم في السابعة عشرة من عمره إلى الخدمة العسكرية. لدى عودته من الجيش البريطاني عام ١٩٤٦ عُيّن مسؤولاً عن القرى الست القريبة من بيته في نطاق عودته إلى صفوف «الهجناه». كان أمبير في دورة ضباط عندما تم تنظيم عملية «نحشون» فقرر قائد الدورة حاييم لسكوف تجنيده كواحد من خمسة خريجين لإقامة كتيبة جديدة لمرافقة القوافل إلى القدس. بعد انتهاء العملية تم تفكيك الكتيبة، وعاد أمبير إلى منطقته فعينه موشيه صادوق رئيس شعبة الطاقة البشرية في لواء الكسندروني، وفي يوم احتلال كفر سابا العربية عين خبير متفجرات في كتيبة ٣٣، وذلك بفضل كونه خبيراً من أيام الجيش البريطاني، وبهذه الصفة وصل إلى الطنطورة.

«... كنت هناك طيلة ساعات النهار، فشاهدت أشياء أُفضل عدم الحديث عنها... التحقت بالجيش البريطاني لأنني فكرت أن أهم شيء على اليهودي القيام به هو الخروج لمحاربة الالمان في كل مكان وبقدر المستطاع. ذهبت لمحاربة الألمان، عالماً أنهم العدو الأكبر الذي عرفه اليهود والعالم كله، لكننا حاربناهم بموجب قوانين الحرب التي املتها علينا الاسرة الدولية. ويجب أن أشير إلى أنه حتى الألمان لم يقتلوا أسرى غير مسلحين وبلا حماية. وفي كل الحالات، عاد الأسرى عندهم أحياء. هنا، في الطنطورة، قاموا بقتل العرب! من الصعب أن تقول إنها كانت معركة حقيقية. كانت النية اخلاء القرية بكاملها. جمعوا جميع السكان وخلال عملية الإخلاء والتجميع سقط شهداء. بمعنى آخر، أن الناس بصورة طبيعية كانوا متعلقين بالمكان ولم يتحمسوا كثيراً للانتقال، وبضغط من الجيش المحتل تسببوا برحيلهم شرقا. أحياناً، تقع الخسائر في المعركة، وهنا لا يمكن قبول الإنطباع بأن التوجه كان نحو إعادة الكرامة الوطنية. كذلك لا أظن أن عدد قتلانا في الطنطورة هو بهذا الحجم الذي سيجعل من الناس كلاب صيد لإشباع جوعهم، بينما كان كل هدفنا احتلال قرية كانت معزولة حتى أنها لم تكن على خط المواصلات بالضبط. كانت تلك ظاهرة شاذة بصورة مطلقة وقاطعة تماماً! لم يكن أبداً مثل هذا القتل المجاني من قبل. بقيت صورة الرجال في القبور الجماعية محفورة بذهني. شاهدت أناساً

كثيرين يُقتلون هناك. غادرت المكان عندما شاهدتهم يقتلون ويقتلون ويقتلون. لذلك لا أعرف بالضبط عدد المقتولين هناك. وكان هناك نهب وسلب في الطنطورة».

وفي نفس سياق أقوال أمبير عن «الرجال من القبور الجماعية»، نورد هنا الأجزاء المتعلقة بالأمر من شهادات بعض اللاجئين من أبناء الطنطورة، أولهم فوزي محمد أحمد طنجي، أبو خالد، الذي تعرفنا على أجزاء سابقة من شهادته في البداية: «جمعونا كلنا على شاطىء البحر. فصلوا الرجال عن النساء. وضعوا أبناء ١٢ فما فوق مع الرجال، والأصغر سناً نقلوهم إلى النساء. بعدها أخذوا ٧ – ١٠ رجال إلى منطقة المسجد، ورموهم بالرصاص، وعادوا لأخذ مجموعة أخرى. وهكذا، حتى قتلوا حوالي تسعين شخصاً. مع كل مجموعة سارت مجموعة جنود، وقد وقفت القرية كلها تراقب ما يحدث. بعدها أخذوا البقية إلى المقبرة، أوقفونا هناك واعتزموا رمينا بالرصاص، عندها ظهرت فجأة مجموعة من أبناء زخرون يعقوب وعندما شاهدوا ما يجري تدخلوا قائلين: كفى حتى هنا!»

وفي نفس الموضوع يروي الجنرال عبد الرزاق اليحيى (أبو أنس) ابن الطنطورة الذي وصل إلى قمة الهرم العسكري الفلسطيني، في حديث خاص: «جمعوا كافة الرجال في المقبرة. بعدها أخذوهم بمجموعات من ٦ – ٧ أشخاص وطلب من كل مجموعة حفر الحفر في الرمال. عندما كانوا ينهون الحفر، ويقفون عند حافة القبور الجاهزة، كانوا يطلقون عليهم النار فيسقطون مباشرة في داخلها، عندها كانوا ينتقلون إلى السرب التالي، وهكذا حتى أتوا على عدة أسراب. في لحظة معينة وقف اثنان من إخوتي كانا في سربين منفصلين وتعانقا مودعين، فقد كانا بانتظار دورهما للموت، عندما ظهر راكب دراجة نارية يهودي حاملاً امراً من القيادة اليهودية بوقف القتل، وهكذا نجا بقية الناس. يبدو أن ذلك كان نتيجة مخاوف من حصول نفس الشيء للاسرى اليهود الذين كانوا بيد الأردنيين. بلغ مجموع القتلى ٧٨ شخصاً، في مذبحة جماعية لم نشهد مثلها من قبل».

لا بد من العودة إلى التأكيد بأن شهادة أبو أنس هي سماعية فقط، نقلاً عن والديه وإخوته الأحد عشر، لأنه كان في ذلك الوقت في سوريه مجنداً في «جيش الانقاذ» بقيادة القاوقجي.

يملك رزق عشماوي (أبو سعيد) في ذاكرته ذكريات مؤلمة عن معركة احتلال الطنطورة. بصفته صبياً في الثالثة عشرة لم ير كل شيء ولم يسمع كل شيء. وعما شاهده بأم عينه ولا يستطيع نسيانه، روى أبو سعيد: «على بعد خمسين متراً من المسجد كانت هناك ساحة. ليس بعيداً عن هناك، أوقفوا الشباب على طول جدران البيوت، كل سرب فيه ٢٥ شخصا، وخلفهم الفتيات. وقف قبالتهم ١٠ – ١٢ مسلحاً وبكل بساطة أطلقوا النار على الشباب فسقطوا مضرجين بدمائهم، أما الفتيات فقد امرهن الجنود بالابتعاد. كان ذلك عند الظهر، بينما كنت في طريقي مع أحد الجنود اليهود ويدعى سمسونوف، وربما عمانويل، لجلب الخبز لي ولعدد من الأولاد الآخرين. عندما عدنا شاهدت مجموعة من أربعين أو خمسين رجلاً قرب الحائط، أطلقوا عليهم وقتلوهم بنفس الطريقة. بعدها علمت من سمسونوف أنهم أرادوا قتلي، ربما بسبب ما شاهدته، فمنعهم اليهودي من ذلك. أثناء الانتظار، وبينما كان الجنود يصوبون نحونا سلاحهم، جاهدت

كل أم أن تغطي ابناءها وتحميهم بجسمها، لكي تصاب بدلاً عنهم إذا اقتضى الأمر؛ حاول أحد الأطفال من دار أبو صفية مناداة أمه فأطلقوا عليها وقتلوها، بالاضافة إلى امرأتين اثنتين قتلوهما في نفس اليوم في القرية. كذلك أُمُّنا، كدنا نفقدها في ذلك اليوم. في لحظة معينة، وبينما كنا نستعد للإنتقال من الشاطىء باتجاه المقبرة، حصل شيء ما لأمي، فلشدة الخوف أصيبت بشلل في ساقيها، ولم تعد قادرة على الحركة تقريباً. لم نستطع حملها فتوسلنا للجنود نقلها بالسيارة، عندها قال الجنود: لا حاجة لذلك، نطلق عليها وننتهي من أمرها. تجادل المسلحون فيما بينهم وبصعوبة شديدة تم تخليصها من موت محتم. وهناك أمر آخر أتذكر وقوعه: شاهدنا جثة رجل في الشارع. بدأت زوجته وأولاده بالصراخ: بابا! بابا! هم أحد الجنود بقتلهم، وبصعوبة تمكنوا من منع ذلك. توسلت الزوجة السماح لها بنقل جثته من تحت اشعة الشمس إلى الظل، وفي نهاية المطاف سمحوا لها بذلك. قتل ٩٣ أو ٩٤ رجلاً في القرية، وثلاث فتيات. استمر دفن الموتى ثلاثة أيام، بمساعدة أشخاص من الفريديس؛ حفرتان كبيرتان للرجال وحفرة صغيرة ثالثة للنساء. في التحصينات المحيطة بالقرية تم العثور على ١٠ أو ١٢ جثة، دفنت كل واحدة في مكانها».

اصطحبت رزق معي، في جولة شاملة استمرت عدة ساعات، إلى المنطقة التي انتشرت فوقها القرية في الماضي ويقوم عليها اليوم كيبوتس نحشوليم وموشاف دور؛ كان رزق دليلي، وقد تمكن من تحديد المكان على شاطىء البحر، الذي جمعوا فيه جميع السكان، الرجال في جهة والنساء في الأخرى، وفي هذا المكان يتذكر رزق كيف أنهم أفرغوا جيوب الناس من جميع ممتلكاتهم الثمينة، في داخل اكياس، وصادروا كل شيء، بما في ذلك خواتم الخطوبة والحلي وغيرها... كل شيء، ما عدا الثياب!

رشيده حسن الأيوب أُعمر مولودة في الطنطورة عام ١٩٢٩، وهي تتذكر في مقابلة معها من يوم ١١/٣/١٩٩٧ أن عائلتها «كانت من أهم عائلات البلد. إحدى الجزر على شاطىء الطنطورة تسمى جزيرة أبو أُعمر، على اسم عائلة زوجي. جدي من جهة أمي أصله من إجزم. كانت الطنطورة قرية غنية ورجالنا لم يشتغلوا تقريباً لدى الغرباء خارج القرية، باستثناء العمل لدى الحكومة البريطانية. كانت علاقاتنا باليهود جيدة. كان اليهود يأتون إلى شاطىء الطنطورة في الصيف ويبقون حتى منتصف الليل وربما أكثر، ونظراً لصعوبة عودتهم في ساعة متأخرة إلى المستوطنة كنا نبقيهم عندنا حتى الصباح، ينامون في فراشنا، ويأكلون طعامنا، ونستضيفهم كالجيران والأصدقاء. فكرنا لسذاجتنا أن جميع اليهود مثل أهل زخرون، الذين كنا معهم مثل الاخوة. لم نفكر بالقتال، ولكننا لم نفكر بالهرب أيضاً. جاء اليهود بصورة مفاجئة، في الثانية والنصف قبل الفجر، ومن كل الجهات: وصلوا بالقطار وبالقوارب من جهة البحر. لم نر شيئاً وسمعنا اطلاق النار علينا وفي الحقول المحاذية لبيتنا عبرت الدبابات... قتلوا زوجي بعد الاحتلال. كيف ولماذا؟ لا أعرف، وقد جنني ذلك، وهو ما زال يقلقني حتى اليوم. أخذوه مع مجموعة من الرجال ولم أره بعد ذلك، لكنهم قالوا لي أنهم شاهدوه بين الموتى... لم أفهم شيئاً عما حدث ولماذا، لكن ذلك كان فظيعاً. جمعوا الكل قرب بيت عائلة يحيى. في الطريق إلى هناك

شاهدت مجموعة رجال أطلق عليهم جندي النار من سلاح ستنّ وقتلهم. كان هناك ٥ – ٧ أشخاص. كان عمي البالغ من العمر سبعين عاماً في تلك الليلة يرعى غنمه، وقد ذبحه أحد الجنود بالسكين ضمن هذه المجموعة. مررنا أيضاً بمجموعة من النساء والأولاد الذين لم يمسسهم أحد بسوء، لكنهم أخذوا الرجال ولم يبقوا على أحد. أخذوهم جميعاً إلى شاطىء البحر، وأوقفوهم أمام الرشاشات... كل الوقت شاهدتهم يقتلون الرجال الذين فصلوهم عن النساء والاطفال».

يتفق هذا الوصف حول تجميع الناس وإيقافهم أمام جنود ورشاشات مع ما ورد في كتاب «الكسندروني»، حول الأسرى.

وإلى بقية حكاية رشيده: «أذكر أنهم قتلوا جيراني: مصطفى، خالد وخليل. ثلاثة أخوة من أبناء عائلة سلبود وغيرهم الكثير، ممن لا أستطيع تذكر أسمائهم اليوم بعد خمسين عاماً...

«بعد الاحتلال مباشرة انتشر الجنود في كافة أرجاء القرية بحثاً عن جنود عراقيين أو سوريين وسألونا عن أماكن العثور عليهم، لكنه لم يكن في القرية أي جندي أجنبي. كان عدد كبير من اليمنيين بين الجنود... اثنان منهم لم يشتركا في إطلاق النار... بالتالي لا أعرف كم من الشباب قتلوا، مائة، مائتين؟ ما هو أكيد أن العشرات من أهل القرية قتلوا قبل أن يتمكن أحدهم من وقف القتل. أحياناً، عندما أفكر بما حدث، استصعب التصديق، أنه في العام ١٩٤٥، في ختام الحرب العالمية الثانية هبط في ساحلنا لاجئون يهود مبحرون مباشرة من أوروبا، خفية عن عيون البريطانيين، أكلوا وشربوا في بيوتنا وواصلوا طريقهم إلى زخرون، وها هم بعد أقل من ثلاث سنوات، في سنة ١٩٤٨، يجيئون لمهاجمتنا بالبوارید والرشاشات والمدافع... هؤلاء يهود، وهؤلاء يهود... تمكنت من رؤية أعمال تجميع الجثث في القرية. شاهدت شاحنة مع صندوق قلاَّب تصل إلى المقبرة. في البداية خطر ببالي أنهم ينقلون الفراش وبقية الأمتعة، التي ينهبونها من البيوت، لكنني ذهلت عندما اكتشفت أن الشاحنة نقلت جثث الرجال من شهداء القرية، وأنزلتها بقلب الصندوق كما لو كانت تقلب قمامة في حفرة على الأرض. بعد ذلك هدموا المقبرة نهائياً، بالقبور القديمة منها والقبور الجماعية الجديدة لقتلى المذبحة. ألقوا بجميع محتوياتها إلى البحر؛ مجرد التفكير بذلك اليوم يخلق عندي الكوابيس. حالة فظيعة وقعت لفتاة شابة وجميلة باسم بهية صباغ. أخذ الجنود هذه الفتاة المسكينة واغتصبها كثيرون منهم. وعندما أعيدت بعد عدة ساعات بدت منهارة تماماً. عرفنا أنها وصلت في ما بعد إلى طولكرم ومنها إلى سوريه على ما يبدو، وفي حياتها ما تزوجت، بالطبع. أما من تبقى من الرجال فأخذوه إلى السجن، ونقلوا النساء والأطفال إلى الفريديس. كانوا يأتوننا بالطعام من مكان ما في الخارج، لا أذكر اسمه، لكن ما أتذكره أن الطعام لم يكن كافياً أبداً فمات الناس وبخاصة الأطفال من الجوع. كان الأولاد يذهبون إلى حاجز إجزم بحثاً عن طعام. بعد مدة جلب الجيش شاحنات لإجلائنا إلى الأردن، وبالفعل، غادرت الغالبية العظمى إلى الأردن وقلة من النساء وأولادهن فقط بقيت في الفريديس. ... »[٩٣].

|

بعد أكثر من أسبوع على احتلال الطنطورة، جاء في منشور دوري للواء الكسندروني من

يوم ١٩٤٨/٥/٣١ أن «طائرة ألقت عدداً من القنابل فوق الطنطورة. وأن القنابل سقطت في البحر» [٩٤].

فهل يتصل هذا الخبر بطريقة ما باحتلال الطنطورة؟ لا يمكن أن نعرف ذلك!

وفي برقية سرية أرسلت في يوم ١٩٤٨/٧/٩ صادرة عن ضابط الاستخبارات المديني إلى كافة الوحدات ذات الصلة بالأمر، ثمة بلاغ عن مسلح يهودي سافر برفقة أفراد الأمم المتحدة ودخل معهم إلى الطيرة، وهناك استمع إلى محادثة بين اثنين من العرب، «علم خلالها أنهم يعتزمون احتلال الطنطورة بأسرع ما يمكن، لضمان ثغرة نحو المثلث، جنوبي حيفا. وإلا فسيكون وضعهم بائساً للغاية»[٩٥].

لا ندري ما اذا كان القصد جاداً وحقيقياً بالعودة إلى احتلال الطنطورة مجدداً، أم أنها مجرد تمنيات أو شائعات معينة، كان بعضهم معنياً ببثها. لكن أمراً واحداً لا يرقى إليه الشك: في ذلك الوقت، عندما جمع الطرفان كافة جهودهما في القتال على قرى المثلث الصغير، لم يكن لدى العرب في المنطقة أو في البلاد بكاملها قوات معينة لكي يجرّبوها في إعادة السيطرة على الطنطورة.

في نهاية هذا الفصل، تجدر الإشارة إلى أن الطنطورة، بغناها الكبير الذي اشتهر به سكانها، وربما جراء نهايتها ونهاية سكانها، كانت مسرحاً لأحداث رواية الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي، «المتشائل»، عندما تشد باقية، اللاجئة الفلسطينية الشابة ابنة الطنطورة قرينها اللاجىء هو الآخر من قريته لتوجيه وحصر حياتهما وحياة ابنهما الصغير نحو هدف واحد ووحيد: «ففي كهف في صخرة تحت سطحه يسكن صندوق حديدي مليء بذهب كثير، مصوغات جدتي ووالدتي وأخواتي ومصوغاتي، وضعه والدنا هنا، وأخفاه، وأعلمنا بأمره، حتى يلتجىء إليه كل محتاج منا»[٩٦].

في سياق الأحداث تتورط العائلة جراء التحاق الإبن بخلية فدائيين تعمل ضد اسرائيل. وبالمدفع الرشاش الذي كان بحوزته يهدد بالمس بكل من يقترب منه ويهدد حريته، التي حققها قبل حين، ولا يستثني بتهديده هذا حتى والديه. وبعد مفاوضات منهكة ومتواصلة مع أمه، يتراجع الإبن أمام توسلات والدته؛ لكن الأم وابنها يختفيان فجأة بين الأمواج دون أن يعثر عليهما أحد، بينما يظل الراوي، الزوج والأب، وحيداً بانتظار علامة حياة ابنهما عبثاً، فيتسلى بشائعة كهذه: «ولما سمعت أن من بين كتائب الفدائيين كتيبة باسم الطنطورة، أخذت أقفل نوافذي وأستلقي على فراشي وأنا احتضن الترانزستور»[٩٧].

ترجمة وإعداد : محمد حمزة غنايم
باقة الغربية

الهوامش:

(١) راجع : توليك ماكوڤسكي، مقطع من يومياته، ٢٧ /٥ /١٩٤٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع «داڤار»، «كول هعام»، «هتسوفيه»، «همشكيف»، «عل همشمار» من يوم ٢٤ /٥ /١٩٤٨.

(٤) راجع «دافار»، ٢٤ /٥ /١٩٤٨.

(٥) مقابلة خاصة مع مردخاي سوكولر بتاريخ ١٦ /٣ /١٩٩٧ و ٢ /٩ /١٩٩٧.

(٦) راجع «هآرتس»، ٢٤ /٥ /١٩٤٨.

(٧) راجع «دافار»، ٢٥ /٥ /١٩٤٨.

(٨) راجع «كول هعام»، ٧ /٦ /١٩٤٨.

(٩) راجع «معريف»، ٢٦ /٥ /١٩٤٨.

(١٠) في محاولة لتتبع أثر «المراسل من الخضيرة» استمعت من موشيه جاك أحد قدامى «معريف»، ومن كان في ذلك الوقت مراسلاً عسكرياً يكتب تحت توقيع «كرياتي»، إلى أن ذلك الشخص قد يكون أهرون ابن حين، الذي كان في وقته مراسلاً لـ «معريف» في نتانيا والخضيرة، لكنه توفي منذ حين.

(١١) راجع : «شاطىء دور»، ص٢٥.

(١٢) شهادة موشيه جاك.

(١٣) زئيف فلنائي: المعركة على تحرير اسرائيل – ١٩٤٨، منشورات «تور»، القدس، ١٩٥٣، ص١٧١.

(١٤) راجع: «الكسندروني»، عملية «الميناء»، ص ٢٢٠ – ٢٣٠. في ملخص يوميات المعركة الخاص لبن غوريون نطالع تقريراً مختصراً عن المعركة: «نجحت عملية الكسندروني في الطنطورة، وتم احتلال القرية. هناك أسرى وغنائم من الأسلحة». راجع: جرشون ريڤلين والحنان أورن (محرران): داڤيد بن غوريون، «من اليوميات»، وزارة الدفاع – دار النشر، تل أبيب ١٩٨٦، ص١٨٥.

وفي الصيغة الأوسع ليوميات بن غوريون تم العثور على إضافة صغيرة لما جاء عن الطنطورة: «عاد رطنر من «الأوسط» ومن الجليل الأسفل: كانت العمليات في الأوسط مطلوبة بحد ذاتها وكذلك لرفع معنويات شبابنا. أخذوا الطنطورة. فيها ميناء جيد». راجع : غرشون ريڤلين والحنان أورن (محرران): «دافيد بن غوريون: يوميات الحرب – حرب الاستقلال، ١٩٤٨، شركة نشر تراث داڤيد بن غوريون، وزارة الدفاع – دار النشر، الجزء الثاني، ص٤٥٣.

(١٥) «تيروشي»، بموجب كتاب ريڤلين، هو مئير نوڤيك، من كان ضابط استخبارات «شاي» جليلي في الجليل الأوسط بين السنوات ١٩٤٤ – ١٩٤٨، راجع: جرشون وعليزه رڤلين: «غريب لن يفهم – كتاب الألقاب والألقاب الخفية في التجمعات السكنية اليهودية في أرض اسرائيل»، «معرخوت»، جيش الدفاع الاسرائيلي، مركز تاريخ قوات الحماية على اسم جليلي، وزارة الدفاع – دار النشر، تل أبيب، ١٩٨٨، صفحات ٣٠٦ – ٣٠٧, ٤٣٩. بخصوص برقيات شعبة العمليات، راجع: أرشيف جيش الدفاع، ملف ١٠٢٥، ارسالية ٩٢٢ /٧٥.

(١٦) راجع: «قرية الطنطورة»، ٣/١١/١٩٤٢، ملف ٣٣، وهناك طبعة أخرى لنفس الوثيقة في ملف عام ٢٠٣/٨.

(١٧) المصدر السابق نفسه.

(١٨) مقابلة خاصة مع عيسى ذيب البشيتي (أبو مصطفى) يوم ٦/٤/١٩٩٧.

(١٩) طوڤيا هيللر، في مقابلة مع الكاتب من يوم ١٠/٤/١٩٩٧.

(٢٠) «أبو توفيق»، في مقابلة خاصة.

(٢١) مقابلة خاصة مع صالح عبد الرحمن أبو مشايخ («أبو محمد») بتاريخ ٤/٤/١٩٩٧.

(٢٢) راجع الأرشيف العسكري، ملف ٢٣، ارسالية ٥٩٤٢/٤٩.

(٢٣) مقابلة اضافية خاصة مع صالح عبد الرحمن أبو مشايخ يوم ٢٥/٧/١٩٩٧.

(٢٤) المصدر السابق نفسه.

(٢٥) رزق عشماوي في مقابلة خاصة.

(٢٦) مقابلة استكمالية مع «أبو محمد» يوم ٢٥/٧/١٩٩٧.

(٢٧) مقابلة خاصة مع فوزي محمد أحمد طنجي («أبو خالد») يوم ٩/٥/١٩٩٧.

(٢٨) انظر: غرشون ريڤلين، وصفي سيناي (محرران): لواء الكسندروني ١٩٤٧ – ١٩٤٩، وزارة الدفاع – دار النشر، وشعبة تخليد الجندي، ١٩٩٢، ص ١٣٥.

(٢٩) مقابلات خاصة مع زهدي سليمان أبو ندى (أبو سليمان) وولديه سليمان ومحمد بتاريخ ٥/٤/١٩٩٧.

(٣٠) سوكولر، مقابلة شخصية.

(٣١) راجع أرشيف حركة العمل، ملف ٣٦/٧.

(٣٢) المصدر السابق نفسه.

(٣٣) راجع «الكسندروني»، ١٩٦٤، ص٢١٨.

(٣٤) راجع «الكسندروني»، ١٩٩٢، ص١٣١.

(٣٥) بينتس فريدان في مقابلة خاصة يوم ٢٣/٣/١٩٩٧.

(٣٦) راجع «الكسندروني»، ١٩٦٤، ص ٢٢٤.

(٣٧) راجع الأرشيف العسكري، ملف ٧١، ارسالية ١٢٨/١٥.

(٣٨) راجع أرشيف حركة العمل، ملف ٣٦/٧.

(٣٩) «أبو محمد» في مقابلة خاصة، من يوم ٢٥/٧/١٩٩٧.

(٤٠) «أبو خالد»، المصدر السابق نفسه.

(٤١) راجع: الأرشيف العسكري، ملف ١٠، ارسالية ٥٩٤٢/٤٩، وكذلك الوثيقة ذاتها، في: الأرشيف العسكري، ملف ٣٨، ارسالية ٢٤٤/٥١، وكذلك في الأرشيف العسكري ملف ١٣٠ ارسالية ٥٩٤٢/٤٩، بنسختين منفصلتين، رغم أن كاتبهما واحد. بما أننا نملك ثلاث نسخ لنفس الوثيقة، مكتوبة على انفراد ولكن بنفس الخط، ومتشابهة بكلماتها، فإننا لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان هناك سبب

خاص أم أنها كانت فقط الحاجة التي سادت آنذاك الى نقل الوثيقة عدة مرات.

(٤٢) أنظر الأرشيف العسكري، ٣٦/٧.

(٤٣) مردخاي سوكولر، مقابلة خاصة.

(٤٤) مقابلة خاصة ثانية مع سوكولر، يوم ١٩٩٧/٩/٢.

(٤٥) انظر: «چيفن»، رقم ٤٥، يونيو ١٩٩٤.

(٤٦) انظر: تقرير عن عملية «الميناء»، ٢٦/٥/١٩٤٨، الأرشيف العسكري، ملف ١٣، ارسالية ٤٩/٦٦٤٧.

(٤٧) راجع: أقوال بينتس فريدان في لقاء «أصدقاء مصنع الزجاج»، ١٩٩٧/٥/٣١.

(٤٨) مقابلة خاصة مع يحيئيل بريسل يوم ١٩٩٧/٣/٣٠.

(٤٩) راجع: «الكسندروني»، ١٩٩٢، ص١٣٤.

(٥٠) متحف «مصنع الزجاج» «احتلال الطنطورة في حرب الاستقلال: عملية الميناء» كتيبة ٣٣ من لواء «الكسندروني».

(٥١) مقابلة أخرى خاصة مع بينتس فريدان يوم ١٩٩٧/٨/٨.

(٥٢) راجع: بلحوڤتس.

(٥٣) راجع الأرشيف العسكري، ملف ١٦، ارسالية ٥١/٩٥٧.

(٥٤) «أبو خالد»، مقابلة خاصة.

(٥٥) حقيقة وجود رشاش برن واحد ليس إلا، لا تتفق مع ما قاله بعض من قابلتهم.

(٥٦) راجع: بلحوڤتس.

(٥٧) راجع: شاول دغان، من زمّرين الى زخرون يعقوب، شركة حماية الطبيعة، مجلس المحافظة على المباني والمواقع الاستيطانية، المجلس المحلي زخرون يعقوب، ١٩٦٨، ص١١٨.

(٥٨) پنينه سندلار في مقابلة خاصة من يوم ١٩٩٧/٨/١٥.

(٥٩) في فصل الشتاء تتدفق مياه وادي «الدفلة» المسمى أيضاً وادي الطنطورة، بموجب ڤلنائي ، من مرج الكروم في زخرون يعقوب، وقد اكتسب الوادي تسميته هذه نظراً لنمو شجيرات دفلى كثيرة على جانبيه، وقد لعب الوادي دوراً مركزياً في الماضي لدى سكان المنطقة. راجع: ڤلنائي، ص١٩١.

(٦٠) هذه الوثيقة موجودة في أرشيف كيبوتس نحشوليم تحت عنوان «يعقوب أفشطاين يتذكر – ذكريات عن الطنطورة» من يوم ٢٥ ايار ١٩٨٢.

(٦١) المصدر السابق نفسه.

(٦٢) راجع: دغان، ص١١٨.

(٦٣) المصدر السابق نفسه.

(٦٤) أهرون بونشطاين، مقابلة خاصة.

(٦٥) راجع: أفشطاين يتذكر.

(٦٦) أهرون بونشطاين: مقابلة خاصة.

(٦٧) المصدر السابق نفسه.

(٦٨) مقابلة خاصة مع يوسي أفشطاين يوم ١٩/٣/١٩٩٧.

(٦٩) راجع: احتلال الطنطورة – عملية الميناء ، دليل المجلس الاقليمي «حوف هكرميل»، رقم ٣١، ابريل ١٩٩٣، ص ١٢ – ١٣.

(٧٠) راجع ارشيف داڤيد بن غوريون، تلخيص لقاء المستشارين للشؤون العربية في نتانايا، من يوم ٩/ ١٩٤٨/٥.

(٧١) جاء اسم المعسكر الذي استقرت فيه قيادة «الكسندروني» من اسم دوره، زوجة دان ايڤن، أول قائد للواء المذكور.

(٧٢) عن «جلسة المختصين بالشؤون العربية» وأبعادها، راجع أيضاً: بيني موريس، نشوء مسألة اللاجئين الفلسطينيين، ص١٦٦ – ١٦٧.

(٧٣) راجع دانين، جزء ١ص ٢١٧.

(٧٤) دانين، ص ٢١٨.

(٧٥) المصدر السابق نفسه.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٢١٩، في موضوع رحيل الفلسطينيين من المهم مراجعة فصل «ترانسفير، بعد وقوعه» من كتاب يغئال عيلام «منڤذو الأوامر». راجع: يغئال عيلام، منفذو الأوامر، «كيتر»، القدس ١٩٩٠، ص٣١ – ٥٢.

(٧٧) وهو ما توسع في الحديث لي عنه كل من بينتس فريدان ويحيئيل پريسل وشلومو أمبر وموشيه مانهايم والحنان عناني وأبراهام أمير (الطويل) وكثيرون آخرون.

(٧٨) البرقيات المقبوسة هنا مأخوذة بالطبع من المادة الوثائقية المخصصة لاطلاع الجمهور، لا يوجد أي يقين ولا يمكن في هذه المرحلة الإعتقاد بأنها كل المادة الخاصة بموضوعنا..

(٧٩) أُخذت هاتان البرقيتان من الأرشيف العسكري، ارسالية ٩٢٢/ ١٩٧٥ ملف ١١٧٥، وهو ملف «المعجزة الكبرى»...

(٨٠) راجع داڤيد بن غوريون، يوميات المعركة، حرب الاستقلال ٤٨ – ٤٩ (غرشون ريڤلين وألحنان أورن – محرران)، وزارة الدفاع – دار النشر، ١٩٨٢، المجلد الثاني، ص٤٥٣.

(٨١) موريس، ص١٦٦ – ١٦٨.

(٨٢) راجع الأرشيف العسكري، ورقة ٦٥، ملف ١١٧٥، ارسالية ٩٢٢/١٩٧٥.

(٨٣) أمنون لين في مقابلة خاصة يوم ٣/٧/١٩٩٧.

(٨٤) راجع موريس، ص ١٦٧ – ١٦٨.

(٨٥) راجع: الكسندروني، المصدر نفسه؛ موريس: المصدر نفسه.

(٨٦) راجع: محمد حسني نجيب: الطنطورة – المذبحة والتاريخ «كل العرب»، ٢٢/ ١١/ ١٩٩١, و ٢٩/ ١١/ ١٩٩١.

(٨٧) راجع : الدليل، ص٦٧.

(٨٨) راجع: مروان الماضي، قرية إجزم الحمامة البيضاء، دمشق – الأهلي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤،

ص١٦٩.

(٨٩) راجع : يرمياهو ربينا (محرر)، جمعية الحراس، ذكريات وأفعال، تفاصيل من تاريخ الحراسة والأمن كما رواها قدامى جمعية «هشومريم» في البلاد، تل أبيب، ١٩٨٧، ص٢٧٩.

(٩٠) راجع: دغان، المصدر نفسه، ص١١٨ – ١١٩.

(٩١) راجع: يوسيف ڤايتس: يومياتي ومذكراتي للأبناء، منشورات مسّادة، المجلد الثالث: حرس الأسوار، ١٩٤٥ – ١٩٤٨، ص ٢٨٦. تجدر الإشارة الى أن ڤايتس أحد رؤساء ومؤسسي «صندوق أراضي إسرائيل» يتطرق الى وجوب اخلاء العرب من البلاد بصورة تامة ونهائية قبل حرب ٤٨ بسنوات كثيرة. وفي مذكراته من يوم ٢٠ /١٢ / ١٩٤٠ يكتب مايلي: «يجب أن يكون واضحاً لنا أنه لا مكان في البلاد لشعبين معاً... ولا توجد طريقة أخرى سوى نقل العرب من هنا للبلدان المجاورة، ربما باستثناء بيت لحم والناصرة والقدس القديمة. لا يجب إبقاء أية قرية أو قبيلة هنا». المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٨١.

(٩٢) يمكن ان نستدل على وجود نية مبيتة لـ «مسح» الطنطورة من على وجه الأرض من أقوال يوسيف ڤايتس في يومياته، باعتباره جزءاً من برنامج عمل مكتبه، لإقامة نقاط استيطان يهودية جديدة، بموازاة «تقدم» الجيش الاسرائيلي المحتل ، كما سبق وأسلفنا. ويؤكد ليشنسكي بأقواله وعن معرفة شخصية ما جاء في مذكرات ڤايتس. راجع: ڤايتس: ٢٨٦.

(٩٣) هنا يواصل الباحث تقديم المزيد من الشهادات التي تدعم الروايات المختلفة حول المذبحة، بأدق التفاصيل، التي تبدو جميعها مأخوذة من مشاهد واحدة مشتركة لجميع من تبقى من أهل الطنطورة على قيد الحياة، لم نجد من اللازم هنا اثباتها كاملة، على أمل أن ترى النور مترجمة بين دفتي كتاب – المترجم.

(٩٤) راجع الأرشيف العسكري، ملف ٢٣، ارسالية ٥٩٤٢ / ٤٩.

(٩٥) راجع: الأرشيف العسكري، ملف ٣، ارسالية ٥٩٤٢ / ٤٩.

(٩٦) اميل حبيبي، المتشائل، الأعمال الكاملة، ط١، ص٢٦٧ – ٢٧٧، الناصرة، نيسان ١٩٩٧.

(٩٧) المصدر السابق نفسه، ص٣١١.